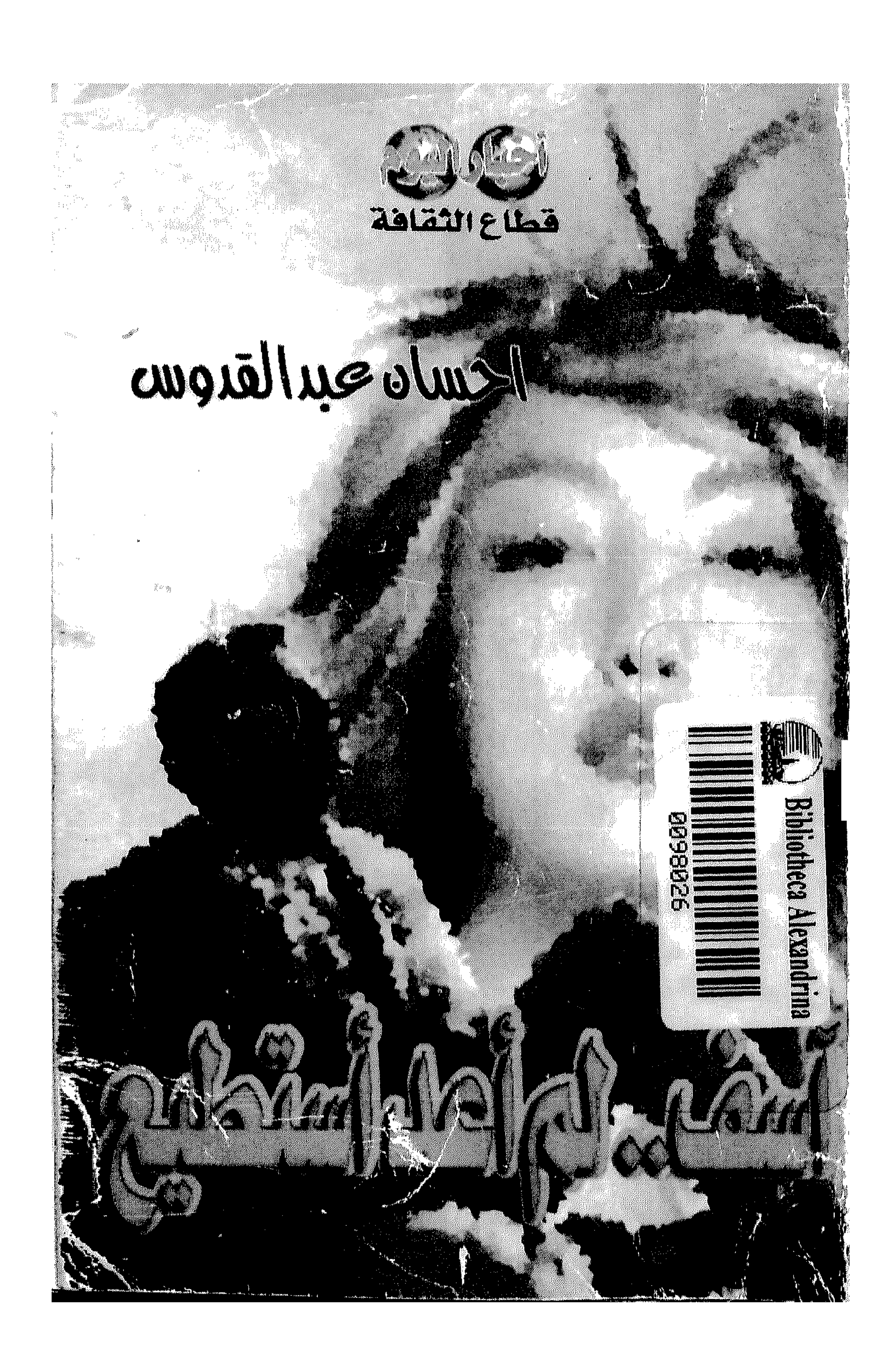

أخبار اليوم
قطاع الثقافة
احسان عبدالقدوس
آسف لم أعد أستطيع
Bibliotheca Alexandrina
0098026



قطـــاع الثقـــافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سـعده

دار أخبـــار اليــوم

قطـــاع الثقـافـة

جمهورية مصر العربية : ٦ شارع الصحافة ـ القاهرة
تليفون وفـاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

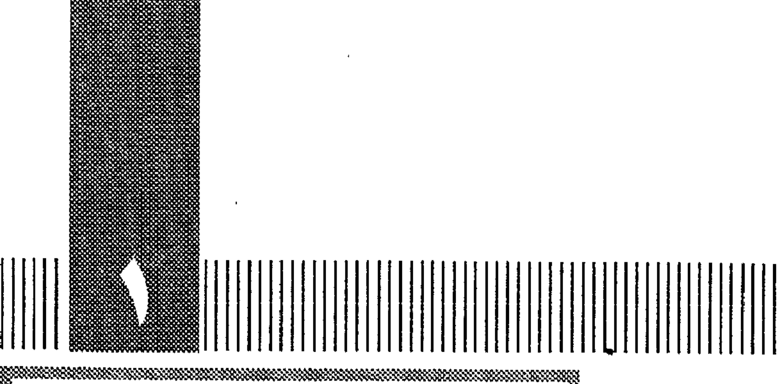

أخبار اليوم
رئيس مجلس الادارة:
ابراهيم سعده
قطاع الثقافة أخبار اليوم قطاع الثقافة أخبار اليوم
آسف لم أعد أستطيع
احسان عبد القدوس

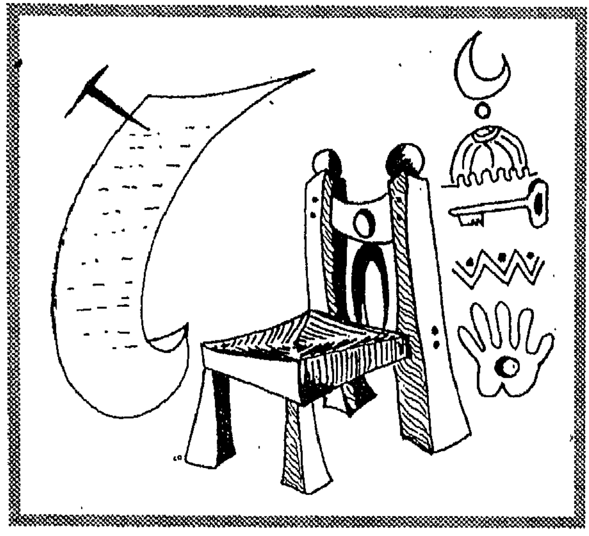
أسف لم أعد أستطيع

٧ قصص قصيرة .. ورسالة

- هل قرأ عبد الناصر الرسالة
- الراقصة والطبال
- قبل الوصول إلى سن الانتحار
- آسف لم أعد أستطيع
- كان يعيش مع لسانه
- الزجاجات الفارغة
- قبل أن تخرج الحقيبة من الباب
- شباك كلها ثقوب

إحسان عبدالقدوس





هل قرأ عبدالناصر الرسالة؟

هل قرأ عبد الناصر
الرســـــالــة ؟

كانت التهمة هى :

- الجنس
- الالحاد

اكتشفت خطابا كتبته لجمال عبد الناصر ١٩٥٥ ..

ودهشت ..

فإنى لا أذكر أبدا أنى كتبت خطابا لأى رئيس جمهورية ، ولعل هذا الخطاب هو الوحيد الذى كتبته ثم نسيته بل إنى لا أذكر إذا كنت قد أرسلته إلى جمال عبد الناصر فعلا ، أم أننى اكتفيت بكتابته ثم ألقيت به فى درج النسيان ..

ومع قراءة الخطاب بدأت ذاكرتى الضعيفة التى تعذبنى بضعفها تستيقظ فتذكر ملامح تبدو باهتة من وراء عشرين عاما مضت ..

كانت الصحافة أيامها لم تؤمم بعد وكانت الرقابة المفروضة عليها ثقيلة عنيفة ، وكنت أنا صاحب روز اليوسف وحتى أهرب بنفسى وبروز اليوسف من ثقل الرقابة كمشت صفحاتها السياسية وفتحت صفحات أوسع للمواد الاجتماعية والأدبية .. وهو نفس السبب الذى جعلنى أيامها أطالب بتأميم الصحافة لأن الرقابة كانت قد وصلت إلى حد أن أصبحت الصحف أقرب فعلا إلى ملكية الدولة ..

وكنا أيامهـا نتحمل كل هذا الثقل لأن الثورة كانـت تخطو خطوات ناجحة قـوية وكان عبد الناصر فى أزهى انتصاراتـه بعد تأميم القناة وفشل الاعتداء الثلاثى حتى أصبح الكثيرون منا يعطونه الحق فى كل شىء حتى فى فـرض هـذه الـرقـابـة العنيفـة .. ان النجـاح يبرر كل الأخطاء..

وكانت لقـاءاتى الشخصية بعبـد الناصر قد تبـاعدت كما تتبـاعد دائما مع أى رجل مسئول لأنى غالبـا لا أستطيع أن أساهم فى تغطية مطـالب المسئـولين ، وأصبحـت آراؤه الخاصـة فيما ينشر بـروز اليـوسف تصلنى اما عن طـريق الـرقابـة أو عن طـريق أصـدقـاء مشتركين ..

وعبد الناصر رغم ما كان عليـه من تفتح فكرى كان فى أحيان كثيرة يبدو متحفظـا إلى حد التزمت فى اختيـار الكلمة التى تقـال والموضوع الذى يبحث حتى خارج مجال السياسة ، ولذلك فعندما تعمدت اهمال السياسة والتفـرغ للأدب لم أسلم من تزمت عبد النـاصر .. وقد سبق أن رويت كيف اعترض على كلمـة «الحب» عنـدمـا كنت أكـررهـا فى الإذاعة قـائلا فى نهاية كل حـديث «تصبحـوا على خير .. تصبحوا على حب» وعرض على أن أستبدلها بكلمـة «محبة» أى أقول «تصبحوا على محبة» ولكنى اعتـذرت وقلت له أنى أحاول أن أفـرض استعمال كلمة «حب» بمعنـاها الصحيح ، وتـوقفت أيامهـا عن حديث الإذاعـة وإلى اليوم .. وعبد الناصر بدأ يستعمل كلمة «حب» ..

ويبدو أن عبد النـاصر أيامها كان يقـرأ قصص «البنات والصيف» التى كنت أنشرهـا فى روز اليـوسف فأرسل لى عـدم موافقتـه على مـا ينشر أو على الأقل عـدم رضائه .. وفى الـوقت نفسه كنت قـد فتحت فى روز اليـوسف صفحـات للأبحـاث الـدينيـة ، وكان زميلى الـدكتـور مصطفى محمود فى مرحلة معينة من مـراحل فكره الدينى وكان ينشر

دراسات دينية اعترض عليهـا أيضا جمال عبد الناصر .. ولعلى عنـدما أبلغت بهذه الاعتراضـات رأيت أن أرد عليهـا برسالـة بدلا من الاعتماد على نقل الكلام عن طريق الأصدقـاء ، وهى الرسالة التى لا أدرى ولا أذكر إذا كنت قد أرسلتها إلى عبـد الناصر فعلا أم احتفظت بها فى درج النسيان .

وقد رأيت أن أنشر اليـوم هذه الـرسالـة ، لا لأساهم بها فى مـوجة نشر الذكريـات والمذكرات ، فليس لى مذكرات لم تنشر ، كل مـذكراتى أنشرها وما أعجز عن نشره فى مقـال أنشره فى قصة وألبسه لشخصية أخرى من خيالى .. وانما أنشر هذه الرسـالة لأنها ترد على ضجة قامت حول قصة من القصص المنشورة ضمن هذه المجموعة من القصص ، ولأنها تعبر عن نقاش لا يـزال يدور بيننا حتى اليـوم ، وعن مواضيع لم نجد لها بعد عشرين عـاما حلا ولا أمانا انما ازددنا ضيـاعا وغرقنا فيها حتى أطراف أنوفنا ..

وهذه هى الرسـالة كما كتبتها منذ عشرين عاما ..

●●●

السيد الرئيس جمال عبد الناصر

عزيزى السيد الرئيس

تحية حب وشوق ..

أبلغنى صـديقـى «الأستـاذ هيكل» رأى سيـادتكم فى مجمـوعـة القصص التى نشرتها أخيرا بعنـوان «البنات والصيف» وقـد سبق أن أبلغنى نفس الرأى السيد حسن صبرى مدير الرقابة واتفقت معه على تعديل الاتجاه الذى تسير فيه قصصى ..

ورغم ذلك فـانى أريد أن أشرح لسيـادتكم الدافع والهدف اللـذين يدفعاننى إلى كتـابة قصصى لا دفاعا عن نفسى ، بـل فقط لأكون قد أبلغتكم رأيى :

أنا لا أكتب هذه القصص بدافع الربح المادى ، فانى مازلت أقل كتاب القصص ربحا ، ولا أكتبها بدافع الرغبة فى رفع توزيع المجلة ، فقد كنت أكتب هذه القصص فى الوقت الذى لم تكن المجلة فى حاجة إلى رفع توزيعها . وقبل الثورة ، عندما كنت أكتب فى قضية الأسلحة الفاسدة وأثير حملاتى على النظام القائم ، وكان عدد «روز اليوسف» الواحد يباع بعشرين قرشا .. فى نفس هذا الوقت كنت أكتب قصة «النظارة السوداء» وأنشرها مسلسلة ، وهى قصة تصور مجتمع المتمصرين تصويرا صريحا جريئا .

وإذا كان رفع توزيع المجلة يعتمد على نشر القصص المسلسلة ، فان القصص الاجتماعية الصريحة ليست وحدها التى ترفع التوزيع ، وقد سبق أن نشرت فى «روز اليوسف» قصة «فى بيتنا رجل» وهى قصة وطنية خالصة ليس فيها مشكلة حب ولا مشكلة جنس ، ورغم ذلك فقد رفعت هذه القصة من توزيع المجلة ، أكثر مما رفعته قصة «لا أنام» مثلا التى تدور حول مشكلة عاطفية ، وذلك كما هو ثابت فى كشوف توزيع المجلة ..

فأنا لا أتعمد اختيار نوع معين من القصص ، أو اتجاه معين .. ولكن تفكيرى فى القصة يبدأ دائما بالتفكير فى عيوب المجتمع ، وفى العقد النفسية التى يعانيها الناس ، وعندما انتهى من دراسة زوايا المجتمع أسجل دراستى فى قصة .. وكل القصص التى كتبتها كانت دراسة صادقة جريئة لعيوب مجتمعنا ، وهى عيوب قد يجهلها البعض ولكن الكثيرين يعرفونها .. وهى عيوب تحتاج لجرأة الكاتب حتى يتحمل مسئولية مواجهة الناس بها .. ومنذ سنين عديدة ، وجدت فى نفسى الجرأة لتحمل هذه المسئولية ..

والهدف من ابراز هذه العيوب هو أن يحس الناس بأن أخطاءهم ليست أخطاء فردية، بل هى أخطاء مجتمع كامل .. أخطاء لها أسبابها

وظروفها فى داخل المجتمع .. ونشر هذه العيوب سيجعلهم يسخطون ، وسيؤدى بهم السخط إلى الاقتناع بضرورة التعاون على وضع تقاليد جديدة لمجتمعنا ، تتسع للتطور الكبير الذى نجتازه ، وتحمى أبناءنا وبناتنا من الأخطاء التى يتعرضون لها نتيجة هذا التطور .. وهذا هو الهدف الذى حققته قصصى لقد بدأ الناس يسخطون ، ولكنهم بدل أن يسخطوا على أنفسهم ، وبدل أن يسخطوا على المجتمع ، سخطوا على الكاتب .. أى سخطوا علىّ أنا .. ولكنى كنت مؤمنا بأن مع استمرارى وتصميمى سينقلب السخط على ، إلى سخط على عيوب المجتمع ، ومن ثم يبدأ الناس فى التعاون على إصلاح ما بأنفسهم .

وإن ما أراه ياسيدى الرئيس فى مجتمعنا لشىء مخيف .. ان الانحلال ، والاخطاء ، والحيرة ، والضحايا .. كل ذلك لم يعد مقصورا على طبقة واحدة من طبقات المجتمع بل امتد إلى كل الطبقات .. وحتى الطبقة الثورية بدأ الجيل الجديد منها ينجذب إلى مجتمع الخطايا .. وأصبحت البيوت المستقرة التى تقوم على الخلق القوى والتقاليد القويمة ، بيوتا لا تمثل مجتمعنا بل تمثل حالات فردية متناثرة هنا وهناك ..

وقد أبلغنى صديقى هيكل أن سيادتكم قد فوجئت عندما قرأت فى إحدى قصص «البنات والصيف» ما يمكن أن يحدث داخل الكبائن على شواطىء الإسكندرية .. والذى سجلته فى قصصى ياسيدى الرئيس يحدث فعلا .. ويحدث أكثر منه .. وبوليس الآداب لن يستطيع أن يمنع وقوعه ، والقانون لن يحول دون وقوعه .. انها ليست حالات فردية ــ كما قلت ــ إنه مجتمع .. مجتمع منحل .. ولن يصلح هذا المجتمع إلا دعوة .. إلا انبثاق فكرة ، تنبثق من سخط الناس ، كما انبثقت ثورة ٢٣ يوليو .. لهذا أكتب قصصى ..

وفى جميع فترات التاريخ كان هذا هو دور كتاب القصة .. وقد كان

الكاتب الفرنسى «بلزاك» يكتب قصصا أشد صراحة من قصصى .. قصصا تدور فى مخادع بنات الداخلية فى المدارس ، وفى أقبية الرهبات والراهبات فى الأديرة ، وفى القصور والأكواخ .. وثار الناس على بلزاك فى عصره ، ولكنه اليوم يعتبر مصلحا اجتماعيا ، وقصصه تترجم بالكامل فى الاتحاد السوفيتى ، حيث يعتبر هناك أحد المعاول التى هدمت الطبقات الاجتماعية المنحلة .. وغيره كثيرون من كتاب القصة ، مهدوا بقصصهم للإصلاح الاجتماعى .. وبين كتاب العصر الحديث أيضا تقوم قوة الكاتب على قدرته على إبراز العيوب الاجتماعية ، دون أن يطالب بوضع العلاج لها . إن مهمته تقتصر على «التشخيص» أى على إبراز المرض ونتائجه .. ألبرتو مورافيا فى إيطاليا وجان بول سارتر فى فرنسا وهيمنجواى وفولكنر فى أمريكا .. و .. و .. وغيرهم عشرات كلهم يكتبون قصصا أكثر صراحة وبشاعة من قصصى .. ورغم هذا فهم يرشحون لجائزة نوبل ..

وحاول كثيرون من الكتاب فى مصر أن يحملوا هذه المسئولية .. المازنى فى قصته «ثلاثة رجال وامرأة» وتوفيق الحكيم فى قصته «الرباط المقدس» .. و .. و.. و.. ولكن ثورة الناس عليهم جعلتهم يتراجعون .. وظهرت الطبقة التى تليهم من كتاب القصص ، فتعرضوا لتصوير عيوب المجتمع وأخطائه وعقده الجنسية ، ولكنهم صوروها بعيدا عن الجو الواقعى فلم يتأثر الناس بها ، أو صوروها داخل الطبقة التى لا تقرأ .. الطبقة الفقيرة .. فلم تحس بها الطبقة القارئة لأن كل طبقة تعتبر الطبقة الأخرى عالما وحده .. عالما بعيدا لا يهمها ما يجرى فيه ..

وكل ما فعلته أنا بعد ذلك ، هو أنى تحملت المسئولية بما فيها مسئولية سخط الناس علىّ ، واعتقدت ـ سواء خطأ أم صوابا ـ أن قصصى تؤدى دورا فى التمهيد لإصلاح المجتمع ، بتجسيم عيوبه ..

لعل سيادتكم تذكر أنى قد حادثتكم كثيرا عن الدور الكبير الذى يمكن أن يؤديه الأدب القصصى ، وساهمت تحت رعايتكم بمجهود كبير فى تنشيـــــط الحياة الأدبية فى مصر ، سواء بتجميع الأدباء والكتاب فى الهيئات الأدبية المختلفة أو برفع مستوى كاتب القصة المادى والأدبى ولم يكن لى أى كسب شخصى من وراء هـذه الجهود ولم أحقق فعـلا كسبا أدبيـا ولا كسبا ماديـا ، بل إن دار روز اليوسف خسرت ثـلاثة آلاف جنيه فى مشروع الكتاب الذهبى ، نتيجة نشر قصص الناشئين .. لم يكن لى أى غرض إلا الجرى وراء إيمانى ..

يبقى بعـد هذا مـا حدثنى بـه الزميل هيكل ، عن دعـوة الالحاد فى صحف دار روز اليوسف والمقالات التـى ينشرها مصطفى محمود .. وقـد أوقفت نشر مقـالات مصطفى محمـود الخاصـة ببحث فلسفـة الدين ، ولكنى أحب أن أرفع إلى سيادتكم رأيى فى هذا الموضوع ، حتى أكون قد صارحتكم بكل شىء ..

إنى مؤمن بالله ياسيـدى الرئيس .. لست ملحدا .. ولعلك لا تعرف أنى أصـلى .. ولا أصلى تظاهرا ولا نفاقـا ، فإن جميع مظاهر حياتى لا تدل على أنى أصـلى .. ولكنى أصلى لأنى أشعـر بارتياح نفسى عنـدما أصـلى ..

ورغم ذلك فإنى أعتقد أن ديننا قـد طغت عليه كثير من الـخزعبلات والأتربــة ، والتفسيرات السخيفة ، التى يقصد بها بعض رجـال الدين إبقاء النـاس فى ظلام عقلى حتى يسهل عليهم ـ أى على رجـال الدين ـ استغلال الناس والسيطرة عليهم .. فى حين أنه لو تطهر الدين من هذه الخزعبلات ، ونفضنا عنه هذه الأتـربة ، لصح ديننا ، وصحت عقولنا ونفـوسنـا ، وسهل على قيادتكم أن تسير بـالشعب فى الطـريق الـذى رسمته له ..

ومن أجل هذا ، بدأت منذ زمن طويل أنشر فى روز اليوسف مقالات تبحث فى الدين .. ولم أكن أنـا أشترك بقلمى فى هذه المقالات لأنى لست

رجل دين ، ولكنى دعوت إليها فريقا من رجال الدين المتحررين ، ومن الكتاب الذين أعتقد أنهم درسوا وقرأوا إلى الحد الذى يتيح لهم الكتابة فى الدين .. وقد سبق ـ مثلا ـ أن نشر الدكتور محمد خلف الله مقالا فى روز اليوسف يؤكد فيه أن القرآن لا يمنع زواج المسلمة من الكتابى .. أو من المسيحى .. وهى دعوة جريئة ، ولكن الدكتور خلف الله أستاذ فى الدين ودراسته وعلمه تخول له أن يحمل مسئولية مثل هذه الدعوة .. و .. و .. وهكذا كنت أعطى الفرصة لكثير من الكتاب ليبحثوا فى أمر الدين ، معتقدا أن فتح هذا الباب سيؤدى حتما إلى رفع مستوى الايمان الدينى .. وقد وقع كثير من الأخطاء نتيجة فتح الباب لمقالات مصطفى محمود مثلا ، ولكن لا شك أننا خرجنا بجانب هذه الأخطاء بمقالات قيمة كان لها أثر كبير فى التفكير الدينى .. وكان آخر ما حاولته هو أنى حاولت تصفية الأحاديث النبوية ، ودثر الأحاديث التى لا يمكن أن تنسب إلى نبينا كحديث «خير اللحم ما جاور العظم» أو «الذبابة على أحد جناحيها داء وعلى الآخر دواء» .. و .. و.. ألخ .. وهى للأسف أحاديث معترف بها وتنشر فى المجلة التى تصدرها وزارة الأوقاف .. فدعوت أحد علماء الأزهر ، وكتب مقالا عن الأحاديث النبوية ، حذفته الرقابة ..

وهذا هو الهدف والدافع اللذان يدفعاننى إلى التعرض للمواضيع الدينية .. لا لأنى ملحد بل لأنى مؤمن ، ولأنى أعتز بإيمانى من أن يكون إيمانا لا يقره عقلى ..

وبعد يا سيدى الرئيس ..

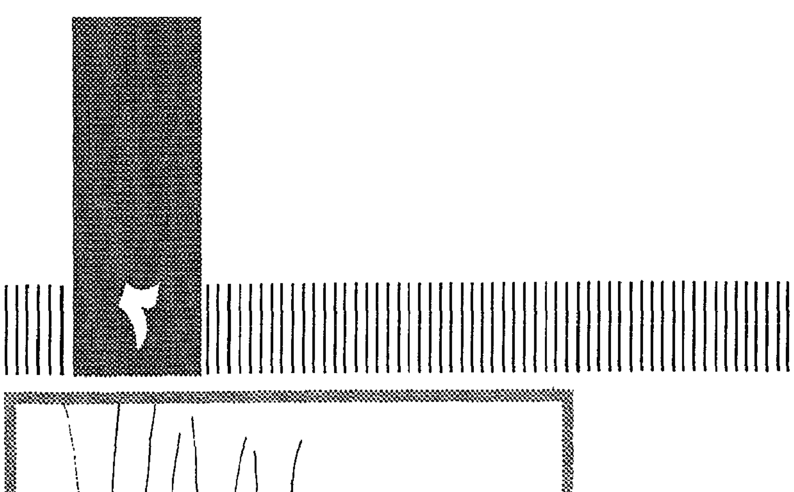
إن كل ما قصدته بخطابى هذا هو أن أظل محتفظا بثقتك فى .. وأنا محتاج إليك كسند وأخ .. وقد عشت حياتى كلها أشعر بالوحدة بين الناس ، وأكافح وحدى ضد دسائس الناس وظلمهم لى ، دون أن آخذ من كفاحى شيئا إلا استمرارى فى الكفاح ..

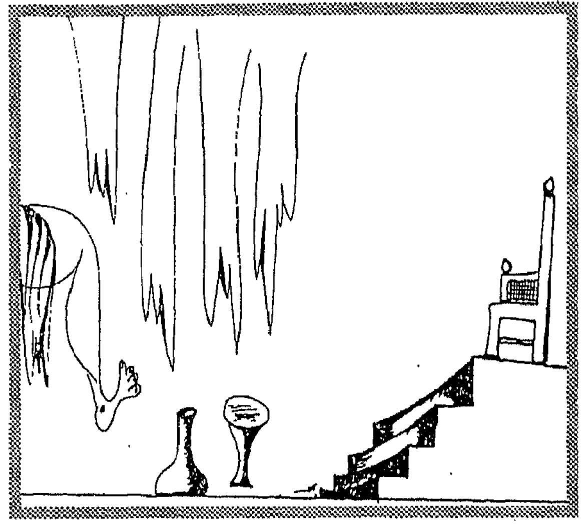
المخلص

إحسان عبد القدوس

هذه هـى الرسـالة التى كتبتهـا عام ٥٥ لجمال عبـد الناصر وبين كلماتها مـا يعبر عن مدى ثقتنـا فيـه وحبنـا له فى هـذه الفترة .. فترة الخمسينـات التى وصفهـا الـرئيس السـادات بأنها كـانت فترة الانتصـارات وقبل أن تبـدأ فترة الستينـات والتى وصفهـا السـادات بأنها فترة الهزائم والتى أخذت منا كثيرا من الحب الـذى كان يجمعنا بعبد الناصر ..

وما قلتـه أيامها فى هذه الـرسالة هـو نفس ما أقوله ويقـوله معى الكثيرون إلى اليوم .. حدود أدب القصـة وحدود الفكر الدينـى .. فاننا مازلنا فى نفـس الحدود لم نتقدم ولا خطوة واحدة طوال عشريـن عاما مضت .





الراقصة والطبال

الراقصة والطبال

جلس عبده الطبال بجانب خشبة المسرح فى حديقة ملهى «ليالى الانس» بشارع الهرم وهو يمسح بكفه فوق جلد الطبلة كأنه يدلل قطته الأليفة وبين شفتيه ابتسامة مسكينة ساخرة كأنه يسخر بها من الدنيا كلها ومن نفسه ..

إنها ليلة أخرى من ليالى العمر الطويل .. سيصعد بعد قليل فوق خشبة المسرح ويجلس على آخر مقعد من مقاعد الموسيقيين .. إن نصيبه دائما هو آخر الصف .. آخر الطابور .. إنه هو وطبلته يوضعان دائما فى مكان الذيل كأن كل مهمتهما أن يهتزا عندما يصدر لهما أمر بالاهتزاز كذيل الكلب عندما يهتز ليعبر عن مزاج صاحبه ..

وسيبدأ فى تقديم اللحن الذى تعزفه الفرقة الموسيقية بنقرات عنيفة على الطبلة لا تتجاوز مدتها عشرين ثانية كأنه جرسون فى المقهى يصيح بطبلته .. أيوه أنا جاى .. كله يسمع .. وبعدها تبدأ الفرقة فى عزف الدور ثم تسكت لينفرد عازف الناى بتقاسيم موسيقية .. ويصفق الجمهور لمرتضى عازف الناى .. ثم يعود اللحن الجماعى حتى ينفرد عازف القانون بمقطوعة موسيقية .. ويصفق الجمهور لحسنين عازف القانون .. ثم ينفرد الكمان ويصفق لمختار عازف الكمان .. ويصفق الجمهور لأشرف عازف الجيتار عندما

ينفـرد بالعـزف .. ثم يصفقون لمجـدى عازف الأورج .. إلى أن تظهـر الراقصة علـوية .. وهنا تصبح المسئولية كلها هى مسئـولية الطبلة .. وعلـوية لا تـرقص إلا على دقة «مصمـودى» .. إن كل راقصة تختـار دقتها .. دقة «مقسوم» أو دقة «ملفوف» أو دقة «مصمودى» .. وكلهن لا يختلفن فى التعبير بـالـرقصة ولكن كـلا منهن تصر على أن تختـار لنفسـها دقة كأنها تقدم بطـاقتها الشخصية .. «صعيدى واللا بحيرى واللا الهوى رمـاك» وهو مضطـر أن يبذل كل ليلـة مجهودا كبيرا مع علوية .. انها تتميز بتباعد غريب بين احساسها وأذنيها .. وهى تحرك جسدهـا أثناء الـرقص باحساسهـا لا بأذنيها .. واحسـاسـها متعلق بالجمهـور الذى أمامها .. بطنهـا يتقلص وينفرد ، وساقاهـا تضيقان وتنفتحان ، وصـدرها يصعـد وينزل حسب احسـاسـها ليلتهـا بنوع الجمهور .. هل هو جمهور أغلبيته من سيـاح البلاد العربية أم أغلبيته من العائلات أم أغلبيته من الطلبة .. وكم عـدد شبيحة وفتوات شارع الهرم الموجـودين ليلتهـا .. وهل وصل صـديقها المعلم عبـد الستـار المعلوف تـاجر الخردة قبل الراقصة أم لم يصل بعـد .. كل هذا يشكل أحاسيسـها ويحدد هزات جسدهـا وهى ترقص دون أن ترتبط أذناها بالموسيقى التى تعزف لها ولا بدقات الطبلة فتضطر الطبلة أن تتبعها وتلاحقها بدلا من أن تكون هى التـى تتبع وتلاحق الطبلة .. إن علوية بلا أذنين موسيقيتين وهى لهذا لا يمكن أن تكـون لها قيمة كراقصة .. انها مجرد شىء يتحرك ويهتز .. قد تكون غـزالا أو جاموسة أو قطار سكة حـديد .. ورقصتها تطـول وتقصر وفقا لاحسـاسـها وتقديـرها لقيمة النقوط .. وتظل ترقص حتى تفقد الأمل فى تلقى أى قرش آخر .. وتأخذ النقوط وتلقى به فى صدرهـا أو تلقى به أمام عازف القانون أو تلقى به فى يد عبده الطبال .. ولا أحد يعـد ما يتلقاه من قيمة النقوط .. الذى يعد ويحسب هـو صاحب الملهى انه جالس بعيـدا يعد كل قرش

من قروش النقوط حتى وهو طائر فى الهواء أو وهو فى صدر علوية .. وبعد الرقصة لا يستطيع أحد أن يحتفظ لنفسه بمليم واحد .. صاحب الملهى يجتمع بهم وهو يبحلق فيهم كأنه يفتش جيوبهم ثم يجمع قيمة النقوط ويأخذ ثلثها لنفسه ، ويترك الثلث للراقصة أو الفنان ، والثلث الأخير للعازفين بالفرقة الموسيقية ..

وتنتهى الرقصة ..

ويصفق الجمهور لعلوية الراقصة ..

لا أحد يصفق للطبلة ..

لا أحد يصفق لعبده الطبال ..

وتتسع ابتسامة عبده الساخرة المرة حتى تبدو كأنها تكاد تنطلق فى قهقهة صارخة يبصقها فى وجه العالم ..

لقد حاول منذ صباه وطول سنوات شبابه أن يضع الطبلة فى قيمتها الفنية الصحيحة وأن يبنى للطبال احترامه الفنى الكامل .. إن الطبال هو القائد الفعلى للفرقة الموسيقية .. إنه المايسترو .. وبدل أن يقود المايسترو عازفى الفرقة بعصاه فان الطبال يقودهم بالطبلة .. بنقرات أصابعه .. ولكن لا أحد كان يعترف للطبال بهذه القيمة .. إن الطبال فى نظر الناس هو مؤخرة الراقصة .. وهو لا يخلق ولا يوجد إلا فى حارة العوالم .. هكذا كان يعتبر الناس الطبال حتى لو كان منهم عبده ..

وعبده لم يولد فى حارة العوالم ولم يبدأ مع راقصات .. إنه من عائلة محترمة من عائلات العباسية وكان أبوه موظفا فى وزارة المواصلات وصل إلى الدرجة الثانية ، وجده كان من رجال القضاء ، وهم يملكون عشرة أفدنة فى البدرشين ، ولم يكن اسمه أبدا عبده الطبال بل كان اسمه عبد الرءوف مرعى .. وكانت العائلة كلها تهوى الفن .. كان الفن أيامها هواية تنتشر بين العائلات المحترمة داخل

البيوت .. كان أبـوه يعزف العود فى أوقات فـراغه ولا يعزفه أبـدا أمام غريب عن البيت حتى لو كان من أصـدقائه .. انها متعة يمارسها فقط فى بيتـه ومع زوجته وأولاده .. وأمـه كانت تهوى العـزف على البيانـو وقد اشترى لها أبـوه بيانـو كما اشترى لنفسه العـود .. واخته كـانت تهوى الغناء .. كانت تغنى وصوتها رائع وكـان مايضـحكه فيها أنها لا تصبر حتى تتم الأغنيـة ولكنها تقفـز قبل أن تتمها إلى أغنيـة أخرى .. وأخوه محمـود هوى نوعا آخـر من الفن وهو كرة القدم وتفـوق فيها حتى أصبح من أبرز لاعبى المدرسة .. وأخوه مـدحت هوى المصارعة وبرغم أنـه لم يتفوق فيها إلا أنـه استمر يعيشـهـا حتى تخرج وتزوج واستغنى عن المصارعة بهواية الطاولـة .. وهو .. عبد الرءوف .. إنه لا يدرى متى وجـد الطبلة بين يديـه .. إنه لا يـذكر نفسه إلا وبين يـديه طبلة .. ولا يـذكر نفسه إلا وأصـابعه تدق دقـات منغمة على كل شىء سواء على الطبلـة أو على الشباك أو على الصينيـة أو على مكتبه أو على ساقيه .. وعـرف بين أهالى الحى بأنه رائع فى دق الطبلـة وفى «الواحدة والنص» ..

ولم تكن أمه متحفظة كأبيه فى الاحتفـاظ بالفن داخل البيت وكانت تقيم ليلة استقبال كل شهر كعـادة السيدات فى هذه الأيام وتطلب من عبد الرءوف أن يـدق الطبلة أمام صديقـاتها وتقوم احداهن لترقص ، وحتى فى المدرسة كـان الطلبة يتجمعون حـوله ويطلبون منـه أن يدق الطبلـة أو يـدق على حقيبتـه ويرقصـون .. كـان يعـرف أن الـرقص لا يمكن أن يكون إلا على دقات الطبلة .. ولكنه وهو يكبر عاما بعد عام بدأ يعرف أيضـا أن ليس كل مايمكن أن تؤديه الطبلـة هو الترقيص .. وترقيـص الناس .. انها آلة مـوسيقية كـاملة .. إن سطحهـا يضم كل الأوتـار الموسيقية وأصـابعه يمكن أن تعـزف فوقهـا من حافتهـا إلى وسطها كل الدرجات الموسيقيـة .. دو .. رى .. مى .. فا .. صو .. ولكن

بشخصية مستقلة عن باقى الآلات الموسيقية .

وهو يـزداد تعلقا بالطبلـة .. وقد حـاول وقد اكتشف قوة هـوايته الموسيقية أن يهجـر الطبلة إلى أى آلـة أخرى .. درس البيـانو وأجـاد العـزف عليه ولكنـه وجد نفســه يعود كل يـوم إلى الطبلة كأنــه ينهى دراسته فى المدرسة ويعود إلى البيت .. البيانو هو المدرسة والطبلة هى البيت .. وتـرك البيـانو وتعلم العـزف على الكمان فى معهـد الموسيقى الشرقية .. ولكنه عاد سريعـا إلى البيت .. وعزف الجيتار .. وخلال ذلك درس «الســولفيج» والنوتـة الموسيقية لعلـه ينتقل أبعد عن الطبلـة .. ولكن أبـدا .. لا يستطيع أن يقضى يـوما دون أن يحتضـن بين يديـه ويطلق أصابعه ترقص فوقها .. إنـه يحس بالطبلة كأنها قطعة منه بل اقتنع أخيرا بأنه وهـو يثقف نفسه مـوسيقيا انما هـو فى الواقع يثقف الطبلة .. ينقل كل ما يدرسه إلى الطبلة ..

ولكن لماذا الطبلة ؟

إنــه يحس بها كأنها الآلــة الــوحيــدة التى يمكن أن تفــرض شخصيتها.. الشخصيـة الشرقية .. الشخصيـة المصرية .. إن الطبلـة منتشرة فى كل أنحاء العالم .. العالم المتقـدم .. والعالم المتأخر .. ولكن كل شعب من شعوب العالم له طبلته الخاصة التى تعبر عن شخصيته الخاصــة .. هـذا بعكس الآلات الأخـرى .. إنها كلهـا آلات مستـوردة تعزف لغـات أجنبية حتى لـو كانـت للحن مصرى .. إن عبد الـوهاب والموجى وبليغ يتكلمون لغة أجنبيـة عندما يضعون الحانهم على آلات أجنبيـة .. وقـد تكـون لهذه الآلات شـخصيـة عـالميـة ولكن ليس لها شخصيـة تعبر عن شعب بـذاته ولـذلك فهى لا تتغير من بلـد لبلـد .. مـاهى شخصيـة الجيتـار.. ومـا هى شـخصيـة الكمان .. ومـا هى شخصيـة الكـونتربـاس والأكورديـون .. لا شـخصيـة .. كلهـا آلات مصنوعة كالبسكليت والسيارة وآلة الحلاقة ..

والآلات التى لها شخصية عربية تكاد تنقرض .. الناى والعود والقانون .. وربما كان العود والقانون لهما شخصية تركية وضياعهما أقل خسارة من الناى .. ولكن الناى مهم .. والأهم منه الطبلة .. يجب أن يحمى شخصية الطبلة من الضياع .. ويجب أن يدافع عنها .. يجب أن يفرض مكانتها وقوتها على فن الموسيقى ..

ومنذ أصبح طالبا فى المدرسة الثانوية بدأت شخصيته تعرف كعازف طبلة .. إنه يرفض أن يحمل لقب طبال .. إنه عازف طبلة .. ويجب أن يعترف الناس بأن الطبلة هى مجموعة أوتار تعزفها أصابع الفنان كما تعزف الجيتار أو الكمان .. لماذا لا يسمى عازف الجيتار «جتار» ، أو عازف الناى «نيياى» .. لقد كانوا زمان يسمون عازف القانون «قانونجى» وكانوا يسمون عازف الكمان «كمنجاتى» .. ولكن هذه التسميات ألغيت وارتفع جميع الموسيقيين إلى لقب عازف أو موسيقار فلماذا يتركون عازف الطبلة وحده يحمل لقب طبال ..

والواقع أن لقب طبال لم يلتصق به وهو طالب فى المدرسة الثانوية رغم أنه أيامها كان يكون فرقا موسيقية من أبناء الحى ويحيى بها الليالى والحفلات فى بيوت الأصدقاء ، وكان يضع دائما دورا للطبلة مع كل لحن .. وكان يصر فى كل حفلة على أن يضرب الطبلة ضربا منفردا .. آسف.. عزفا منفردا .. بل كان يفرض شخصيته على أصدقائه العازفين معه ويصمم أن يكون مكانه هو وطبلته فى وسط الفرقة مكان عازف القانون أو عازف الكمان .. لماذا توضع الطبلة دائما فى مؤخرة الفرقة مع أنها مايسترو الآلات وضابط الايقاع أى ضابط الفرقة ..

ولم يكن أحد يتنبه إلى كل هذه المحاولات التى يحاول بها أن يطور مكانة الطبلة بين بقية الآلات الموسيقية فقد كان مجرد طالب يهوى الموسيقى .. ابن عائلة محترمة وليس طبالا .. وكان محبوبا بين أهالى

الحى لروح المرح والموسيقى التى تحيط بـه دائما ، وكانت بنات الحى يتمنينه ويتمنين أن يرقصن على طبلتـه .. وكان يمكن أن يعيش العمر كله كمجرد هـاو للطبلة كما يهوى أبوه عزف العـود وتهوى أمه عزف البيانو وتهوى أختـه الغناء وتستمر به الحياة ليكون مـوظفا محترما ورب عائلة سعيدة .. ولكنه التقى بـالأستاذ على كمال مؤنس صاحب فرقة الأحلام الذهبية الموسيقية ..

ولم يبذل الأستـاذ على كمال مؤنس أى جهـد فى ضمه لفـرقته إنما فقط أبدى إعجـابه به ، وفـرح عبد الرءوف بهذا الإعجـاب واستغله فى كسب صداقة الأستاذ مؤنـس ، ودفعته الصداقة إلى أن يشترك بطبلته فى بعض الليالى التى تحييهـا فرقة الأحلام الـذهبية .. متبرعا .. مجرد هاو .. ولكنـه بدأ يتعـود على هذه الليـالى وبدأ الأستـاذ مؤنـس يزداد إعجـابا بـه ويعتمد عليـه أكثـر وبـدأ عـالم الموسيقى يكتشـف فيـه شخصية جديدة قادرة على جذب الجمهور ..

واحترف ..

احترف الموسيقى ..

احترف الطبلة ..

أصبح عضوا ثابتا فى فرقة الأحـلام ويتقاضـى أجرا كبيرا بالنسبة لما كان يتخيلـه كمستقبل بعد أن يصبح مـوظفا محترمـا .. جنيهان فى الليلة الواحدة ..

وكان عبـد الرءوف أيـامها قـد حصل على شهادة التـوجيهية التى تسمى الآن شـهـادة الثانـوية العامـة .. والتحق بكليـة الزراعـة تلبية لـرغبة أبيـه الذى كـان يـريد أن يتخصص أحـد من أبنائه فى زراعـة الأفدنة العشرة التى يملكها .. وثار أبوه عندما علم أن ابنه عبد الرءوف احترف الطبلة وانضم إلى الفرقة الموسيقيـة .. وكان عبد الرءوف يقنعه بأن الطبلـة لن تشغلـه عـن الـدراسـة الجامعيـة .. واضطـر الأب إلى

التسليــــــــم والاقتناع وإن كان قد قاطع الاستماع إلى هذه الفرقة الموسيقية بل حـرم على ابنه أن يعـزف الطبلة فى البيت .. أتـرك الطبلة ياولد وذاكر ..

ولم يستطع عبـد الـرءوف أن يحقق وعـده .. أخـذتـه الطبلـة من الجامعة .. وتفـرغ بكله للفرقة الموسيقيـة .. وتغير كل شىء فيه حتى اسمه .. لم يعد اسمه عبد الرءوف مرعى .. أصبح اسمه عبده الطبال ..

وعبده يحس أنه انتقل إلى الحياة التى يريدها .. حياة الطبلة .. وهو نـاجح .. ويحس بنجاحـه .. ولكن مشكلته انـه لا يستطيع أن يستغل هذا النجاح فى التطور بالطبلة نفسها كـآلة يريد أن يرفعها إلى مستوى الآلات الأخرى .. لا يليق أن تبقى الطبلـة آلة مساعدة أو آلـة مكملة أو مجرد ساعة بزمبلك لضبط الإيقاع ..

وقد عرض على الأستاذ مؤنس صاحب الفرقة عدة مرات أن يفسح له مكانـا لعزف منفرد على الطبلة .. وكـان يختار المقاطع بين الألحان التى يمكن أن تنفرد فيها الطبلة بنفسها .. بل إنه وضع لحنا كاملا من تأليفه خص الطبلة فيه بمعظم الفقـرات وابتكر فيه جملا موسيقية لم تعرف من قبل .. ولكن الأستاذ مـؤنس .. وهو إنسان يضع الموسيقى فى مستـوى الكوكـاكـولا .. مجرد شىء للترفيـه عن الأذن كما ترفـه الكـوكاكـولا عن بـلاعيم النـاس .. كـان الأستاذ مـؤنس يسـخـر من اقتراحات عبده الطبال .. خليك معانا يا بتهوفن .. وكان أحيانا يترك له بضع دقـائق أثنـاء العزف لينفـرد فيهـا بـالطبلة .. دقيقـة أو اثنتين لا أكثر..

ثم إنـه يـريد أن يحقق أحـلامـه بنقل الطبلـة من حـافة الفـرقـة الموسيقية إلى وسطها .. إن آلة «الجازبنـد» توضع الآن فى وسط الفرقة التى تعـزف الموسيقى الأجنبيـة .. والجازبنـد هى طبلـة .. طبلــة الخواجـات فلماذا لا تحترم الطبلة المصريـة وتحتل مكان الصـدارة فى

الفرقة الموسيقية .. ولكن مستحيل .. الأستاذ مؤنس لا يمكن أن يفهم هذا الكلام ..

إن عبده يحس أنه لا يستطيع أن يصل مع الأستاذ مؤنس وفرقته إلى المكانة والاحترام اللذين يحلم بهما طوال عمره .. مكانة الطبلة واحترام الطبلة .. لم يكن يحس بهذه المكانة وهذا الاحترام إلا مع الراقصة .. كل راقصة وأى راقصة .. إن الراقصة هى لعبة الطبال وهى تعرف انها لعبته وحتى يلعب بها لعبة تعجب الناس فهى تحاول أن تكسبه .. تحاول أن تأخذه .. الراقصة للطبال كالمطربة للملحن .. وكما تزوجت وردة ببليغ وتزوجت فايزة بمحمد سلطان .. تزوج النغم بالصوت .. وضاعت نجاة وشادية لان الصوت لم يجد نغما يتزوجه .. فإن كل راقصة تتمنى أن تتزوج طبالا حتى تطمئن على فنها .. تتزوج الدقة بالهزة .. وقد تزوجت الراقصة نعيمة بمحروس الطبال .. وتزوجت الراقصة ليلى بعباس الطبال .. والراقصة شريفة لم تتزوج فهمى الطبال ولكنها سلمته كل حياتها .. فالطبال هو سيد الراقصة حتى ولو لم يتزوجها .. وربما لهذا هربت الراقصة حياة فاضل من كل الفرق الموسيقية وأصبحت ترقص على تسجيلات حتى لو جازفت بإعجاب ورضاء الجمهور .. وآه لو عرف الجمهور ما يجرى بين الراقصة والطبال ..

ولكن عبده الطبال شيء آخر .. إنه يرفض أن تعتبر الطبلة مؤخرة الراقصة .. إن الطبلة ليست دقات لهز الخصر انها أنغام للأذن .. إنها لحن كامل .. وقد حاولت كل راقصة رقصت أمام طبلته أن تعطيه كل ما تريد وأكثر .. عرضت عليه نعيمة الزواج .. ماتيجى نتجوز يا عبده وعرضت عليه سميرة ليالى بلا زواج .. وحاولت سنية أن تدفع له أتعابا .. إنه طبيبها الذى يعالج فنها ويكتب الروشتة بالطبلة ويستحق الفزيتة .. ولكنه يرفض .. يرفض أن ترتبط الطبلة والطبال

براقصــة .. إن الطبلة فن أوسع مـن الرقص والطبـال يحرك الجمهور وليس الراقصات فحسب .. ولكنه رغم ذلك هـو المسئول عن الراقصة التى ترقص أمامـه وكان يحدد علاقته بكل راقصة على قـدر موهبتها وعلى مستوى تعبيرها بفنهـا .. إن الرقص فن تعبيرى يعبر عن خوالج النفس البشرية .. وعلى قدر ارتفـاع موهبة الراقصـة وارتفاع مستوى تعبيرهـا كان عبـده يعطيهـا من فنه .. فن الطبلـة .. وقـد عرفت عنـه الراقصات كل ذلك وكن يبذلن فى الرقص أمامـه أكثر مما يبذلن عندما يرقصن أمـام أى طبال آخر .. وكن يحترمنه .. بل إنهن منحنـه لقبا لم ينله أحـد من الطبالين .. لقب أستاذ .. الأستاذ عبـده الطبال .. وبعض الراقصـات كن يخفن الأستاذ عبـده .. يشعرن بـالعجز الفنى أمـامه فيهربن منه ويرفضن الرقص أمامـه .. هذا النوع من الراقصات الذى يتحرك دون أن يعبر .. فعـرف عبده بأنه لا يعـزف إلا لأرقى مستوى الراقصات ..

وعبده وسط كل ذلك تشتد به أزمته ..

أزمة الارتقاء بالطبلة والطبال ..

لم يعد هنـاك أمل إلا أن يجمع فرقة مـوسيقية خـاصة به .. فـرقة يستطيع أن يضع الطبلـة على رأسهـا وفى مقدمتهـا وأن يترك الطبلـة تعزف فيها عزفا منفردا ..

ولكن أين يعمل بهذه الفرقة ..

مَنْ أصحاب الملاهى يقبل أن يعـرض مجرد فرقة موسيقيـة تقوم على طبلة ؟ ..

وأى مـؤسسة من مـؤسسات الـدولة يمكن أن تفسح المجـال لهذا الفن الجديد ! .. الإذاعـة ؟ . التليفزيون ؟ مـؤسسة المسرح ؟ .. لا .. لا يظن أنه يمكن أن يجد طريقا إلى هذه المجالات ..

وكـان مع الفرقـة الموسيقية فى طنطـا يشترك مع المطربـة فريـدة

رحمى فى احياء فرح ابنة احدى الشخصيات .. وشاهد هناك مباهج ترقص .. انها ترقص مع فرقة العوالم .. بعد الزفة .. وهى صغيرة قد لا تتجاوز الخامسة عشرة ولكنها ترقص رقصا رائعا .. إنها تعبر تعبيرا جديدا عن أحاسيس صادقة .. وهى لا تفتعل .. ولا تثير .. انها كأنما تتكلم بتحركات جسدها .. كأنها تروى حكاية .. حكايتها .. من أين جاءت بكل هذا الفن .. إنها موهبة تلقائية كما وهب هو فن الطبلة من قبل أن يتعلمه ..

وطرأت الفكرة على باله ..

وصمم عليها ..

وبحث عن أب مباهج .. وكان يعتقد أنه لا شك أحد أفراد طاقم العوالم أو أحد فنانى الارياف .. ولكنه لم يجد أباها ولا أمها وعرف انها تعيش ملكا لزنوبة العالمة .. وزنوبة تعرفه .. كل العوالم يعرفن أو يسمعن عن الأستاذ عبده الطبال .. واستطاع أن يقنع زنوبة بأن يأخذ منها مباهج ليضمها إلى فرقته .. الفرقة التى لم يكونها بعد .. ودفع لزنوبة .. اشترى منها مباهج وان كانت قد اشترطت عليه أن تقيم مباهج فى القاهرة مع ابنة عمتها فردوس .. وفردوس ليست راقصة ولا عالمة ولكنها متزوجة فى القاهرة وزنوبة لا تطمئن على مباهج إلا وهى مع ابنة عمتها حتى لو كانت فى رعاية عبده الطبال .. وعبده يفهم ما ترمى إليه زنوبة .. انها تريد أن تبقى مالكة مسيطرة على مباهج ..

وعاد عبده بمباهج إلى القاهرة وتركها فى بيت فردوس ابنة عم زنوبة .. واستقال من فرقة الأحلام الذهبية رغم الحاح الأستاذ مؤنس بألا يتركهم .. وبدأ يجمع فرقته الجديدة .. لم يكن فى حاجة إلى أكثر من أربعة عازفين .. إنه لون جديد من الفرق الموسيقية .. الطبال وعازف الناى وعازف أوكرديون وعازف جيتار .. واختارهم كلهم من الناشئين وكلهم من الهواة ماعدا عازف الناى .. هواة من الشبان

الناشئين .. شبـان كان يعرفهم وكانـوا يتعلقون به وهم مؤمنـون به وبطبلته..

وفى كل صباح يجتمعون كلهم فى بيتـه ومعهم مباهج .. وهو يضع اللحن بنفسه ويطـور الألحان القديمة لصالح الطبلة .. وهـو يعلم أنه سيبيع فنه بالرقصة .. ليس هنـاك ملهى يمكن أن يقبله إلا إذا قدم له راقصة ورقصة .. لا يهم .. أن عبد الوهـاب يبيع فنه بصوت أم كلثوم وهو سيبيع فنـه برقصات مبـاهج .. ولكن هناك فرقـا .. إن أم كلثوم كيــــــان فنى يوازى عبد الوهاب وكل منهما له فضل على الآخر أما مباهج فهى راقصة جديدة لا يعـرفها أحد وكذلك كل من يجمعهم من أفراد الفرقة .. لا أحد معروف ولا أحد يمكن أن يوازيه ولا أن يكون له فضل عليه .. وهو الذى يخلق كل شىء .. وعبـد الوهاب يقدم أغنية أم كلثـوم بمقدمـة موسيقيـة طويلـة حتى يثبت ويبرز شخصيته أمـام شخصية أم كلثوم ، وهو أيضا لن يقدم رقصـة مباهج إلا بعد مقدمة موسيقية طويلة تعبر عنهـا الطبلة .. الطبلة فقط مع مقاطع سريعة من الأكورديون والجيتار وبمصاحبة الناى ، حتى يثبت شخصية الطبلة بجانب قوة جذب الرقصة التى تـرقصها مباهج .. مقدمة عشر دقائق كاملة تلعبها الطبلة قبل أن تدخل مباهج لترقص ..

والبروفـات تبدأ كل صبـاح ولا تنتهى قبل منتصف الليل .. وهـو يحاول أن يحقق فى مباهج كـل ما اختزنـه فى خياله مـن فن الرقص .. ويقســو عليهـا .. ويصرخ .. وهى تستسلـم وتطيع بل إنها أصبحت تؤمن به وتتعلـق به كأستاذ .. انها ترى فيه المستقبـل الجديد .. وهو يتعب محفوظ عـازف الجيتار .. إنـه لا يزال فى المدرسـة الثانـوية كما كـان هو قبل أن يحترف الطبلـة .. ويتعب أيضا عبـد الحميد عـازف الأكورديون .. انـه يريد أن يخلصه من الأنغام الأجنبية .. يـريد به أن يمصر الأكـورديون .. الـوحيد الـذى يتأمل معه بهدوء هـو مصطفى عـازف الناى .. انـه محترف مثله .. ومصطفى ينظـر إليه دائما كأنـه

يشفق عليه ويطاوعه كأنه يأخذه على قدر عقله ويتحمل صديقه إلى أن يشفيه الله ..

وتمت البروفات ..

كل شىء جاهز للعرض ..

واستطاع أن يتفق مع ملهى البلابل بشارع الهرم وكان لا يمكن أن يتم الاتفاق إلا بعد أن يشاهد برسوم المليجى صاحب الملهى رقصات مباهج .. وقاس بعينيه استدارة نهديها وخصرها وخطوط ساقيها .. انها جميلة .. انها شابة لم تترك الليالى بعد بصماتها على جسدها .. انها فن بكر ..

وبدأت الليلة الأولى ..

ولأول مرة تقدم الطبلة نفسها للجمهور وقد توسطت أفراد الفرقة الموسيقية وعن يمينها الناى وعن يسارها الأكورديون والجيتار ..

الطبلة هى المايسترو ...

لقد جعل أحمد فؤاد حسن من آلة القانون مايسترو الفرقة .. وعبده الطبال ازاح القانون وطرده من الفرقة وتولت الطبلة القيادة ..

ربما ظلم الجمهور عبده الطبال منذ الليلة الأولى .. إنه جمهور لا يستطيع أن يفهم أن تكوين فرقة موسيقية من أربع آلات فقط هو تجديد فى فن توزيع الأنغام .. كل ما يفهمه الجمهور هو أن صاحب هذه الفرقة إنسان فقير غلبان لا يستطيع أن يدفع أجور أكثر من أربعة عازفين .. إن عدد أفراد الفرقة الموسيقية أصبح مظهرا من مظاهر غنى الفنان .. وقد كانت منيرة المهدية تغنى على فرقة موسيقية من خمس آلات .. وجاء عبد الوهاب ورفع العدد إلى ثمانية ليثبت أنه غنى فنيا .. فاضطرت أم كلثوم أن ترفع العدد إلى عشرة رغم أنها بدأت الغناء على مزمار واحد .. وتحداها عبد الوهاب فرفع عدد أفراد فرقته الموسيقية إلى خمسة عشر .. وظهر عبد الحليم حافظ

كمنافس خطير فتقدم بفرقة موسيقية عددها خمسة وعشرون .. واعتقدت أم كلثوم أن هذه هى موضة الجيل الجديد فرفعت عدد أفراد فرقتها الموسيقية إلى ثلاثين .. وهكذا سرت العدوى بين كل المطربين والمطربات ثم انتقلت إلى الراقصات وأصبحت نجوى فؤاد ترقص على أنغام فرقة تجمع أربعين عازفا وطبالا .. كل ما ملكت أيمانهم .. على قدر فلوسك تجمع من يعزف لك .. رغم أن الأداء الفنى ليس فى حاجة إلى كل هذا العدد من الآلات الموسيقية ولا من الموسيقيين .. إنه أداء فردى .. المطرب أو المطربة أو الراقصة يؤدى كل منهم فنا فرديا لا يحتاج إلى كل هذه الزيطة الموسيقية .. فلو كان العمل الفنى جماعيا كالأوبرا أو السيمفونية أو المسرح الاستعراضى أو رقصات فرقة رضا أو استعراضات الجيش لاحتاج إلى هذا العدد من الآلات الموسيقية حتى يتم التوازن فى الأداء .. ولكن ما حاجة الأداء الفردى إلى عشرين آلة كمان مثلا .. إنه مجرد مظهر تفاخر كتعليق الأعلام والأنوار الملونة فى الموالد والأفراح .. وكانت النتيجة أن تمزق الذوق الفنى للجمهور .. أصبح الجمهور يسمع أغنية لشادية أو لفايزة وهو تائه بين مؤثرات متناقضة .. هل يرقص بلدى .. أم يرقص افرنجى .. أم يعيش فى نغم أوبرالى .. أم يتسلطن طربا ويصيح الله الله يا ست .. وضاعت مع ذلك المقطوعات الموسيقية مع مقطوعات الغناء الفردى فلم يعد عبد الوهاب يستطيع كملحن أن يقدم مقطوعة موسيقية ويضمن لها النجاح بلا غناء ولم تعد أم كلثوم تستطيع أن تغنى بلا مقطوعة موسيقية قائمة بذاتها ولا علاقة لها بما تغنيه ..

وعبده الطبال كان يعرف كل ذلك وكان يريد أن يطور تكوين الفرق الموسيقية بحيث تكون فى حدود حاجة اللحن .. والألحان التى يقدمها ليست فى حاجة إلى أكثر من أربع آلات .. ومباهج فى رقصتها ليست أيضا فى حاجة إلى أكثر من الآلات الأربع .. لماذا يأتى بعازف

كمان مثلا .. إن آخر ما تحتاجه أى رقصة بلدى هى الكمان .. إنها آلة لا تصلح لأداء الأنغام الراقصة وعندما تشارك الآلات الأخرى فى لحن رقص شرقى تبدو أنغامها كأنها مجرد يد طفل تصفق مع هزات خصر الراقصة ..

ولكن عبده الطبال لم يكن يتعمد تطوير الفرق الموسيقية فحسب بل كان أيضا يعبر عن غيرته من الآلات الأخرى .. إنه يغار ويسخط ويلعن هذه الآلات التى تضع نفسها فوق مستوى الطبلة فتطردها إلى نهاية الحافة الموسيقية .. إلى آخر مقعد من مقاعد الفرقة .. وقد أصبحت الفرقة فرقته .. فرقة الطبال .. فرقة الطبلة .. والطبلة لن تأخذ معها إلا ما تحتاج إليه من بقية الآلات .. وهى لا تحتاج إلى كثير انها فى غنى عن معظم الآلات الموسيقية خصوصا الآلات الدخيلة كالأورج هذه الآلة التى يقف العازف خلفها كما يقف لاعب الأراجوز يقلد جميع أوتار الآلات الأخرى ..

ولما كانت الطبلة مكلفة دائما بأن تبدأ بعدة فقرات تعلن بها افتتاح اللحن ، كأنها دقات على خشبة المسرح تعلن رفع الستار .. إوعى أنا جاى .. كله يسمع .. فقد قرر عبده أن يتولى الأكورديون التقديم .. لا الطبلة .. إن الطبلة أصبحت فى فرقته هى البريمادونا .. هى البطلة .. وعلى الآلات الأخرى أن تقدمها .. ولعب عازف الأكورديون لحنا سريعا لا يتجاوز دقيقتين يعلن الافتتاح ثم دخلت الآلات الأربع مع بعضها : الطبلة والناى والأكورديون والجيتار .. تعزف الافتتاحية .. ثم سكت الجميع لحظة وبدأت الطبلة وحدها .. وكان عبده ينتظر أن يحييه الجمهور بالتصفيق عندما يبدأ كما يصفق لأم كلثوم عندما تقوم واقفة بين أفراد الفرقة وقبل أن تبدأ الغناء .. ولكن أحدا لم يصفق .. انهم لا يعرفون ما سيقدمه لهم وبدأت أصابعه تلعب فوق الطبلة .. ان كل سنتيمتر من سطح الطبلة يعتبر وترا .. وهو يعزف

فوق أوتار .. انـه لا يطبل .. ولكنه يعزف .. شيئا جديدا تقـدمه الطبلة لعالـم الفـن وللجمهور .. والناى يصــاحب الطبلة فى بعض المقــاطع .. والجيتار يصاحبها فى مقاطع أخرى .. والأكورديون يحييها بزغرودة موسيقية بين كل مقطع وآخر ..

وصفق الجمهور ..

وصفق بحرارة ..

إنها المرة الأولى التى يتمتع بها عبـده الطبال بـالتصفيق له وحـده التصفيق للطبلة ..

واستمـر يعـزف ولم يلاحظ أن الجمهـور بـدأ يتطلع إلى مـداخل المسرح كأنـه ينتظر أن يـرى شيئـا آخر .. ولم يحس بأن بعضـا من الجمهور بدأ يحادث بعضه فى جوانب الصالة .. لم يلاحظ عبده شيئا من هذا .. إنه مندمج كلـه مع طبلته وقد خصص لها كل الوقت .. عشر دقـائق .. عشرين دقيقة .. وبجـانبه صـديقـه مصطفى عازف النـاى يزداد اشفـاقا عليه .. إنـه يعلم أن الجمهور لا يحتمل الطبلـة كل هذه المدة حتى لو كانت بين يدى عبده الطبـال .. وهو يرى تطلعات الناس ويعرف إلى ماذا يتطلعون .. انهم يتطلعون إلى دخول الراقصة ..

الطبلة تغنى الراقصة ..

لا .. عبده الطبال متأكـد أن الطبلة تستطيع أن تغنى الناس عن كل آلة أخـرى وعن الراقصــة وهو لا يحس إلا بالطبلــة .. إن هذه الفـرقة كلها هى فرقة الطبلة ..

وانتهى اللحن وسكتت الطبلة ..

وصفق الجمهور .. ولكنه تصفيق خافـت متناثر بين عدد قليل من الموائد .. ورغم ذلك قــام عبـده وبين يـديـه طبلتــه يحيى جمهــور المصفقين .. مهما كان التصفيق خافتا فهو تصفيق للطبلة وحدها ..

وعادت الفرقة تعزف ..

وظهرت مباهج على المسرح لترقص ..

وجه جديد يراه جمهور شارع الهرم لأول مرة .. وجه مصنوع في طنطا .. بركاتك ياسيدى يابدوى .. وانبهر الجمهور بالجمال الفلاحى الأسمر والقوام المشدود كأنه يرقص وهو يحمل فوق رأسه بلاصا .. والهزات التى تبدو ساذجة بريئة كأن مباهج طفلة تغافل أهلها وترقص في مولد .. حتى الثوب الذى ترقص به ليس زاعق الألوان تنتشر فوقه حبات الترتر والفصوص وليس ثوبا يتمزق فوق جسدها ليكشف عن نهر ثدييها وثنايا خصرها .. إنه ثوب أسود من الحرير الشفاف كأنه ثوب فلاحة تزف به إلى بيت عريسها .. ثم اللحن الذى ترقص عليه والذى وضعه عبده .. إنه لحن مصرى خالص يتركز في الطبلة .. وتأخذك الطبلة إلى طنطا ثم تنقلك إلى دمنهور ثم تجد نفسك في أسيوط ثم تقفز بك الطبلة إلى بعيد إلى بلاد النوبة .. إن طبلة عبده ترسم مصر كلها على قوام الراقصة مباهج .. وكل مكان من مصر له دقته الخاصة على الطبلة ..

ودوت الصالة بالتصفيق ..

ووقف عبده الطبال يحيى الجمهور .. إنه هو الذى خلق كل هذا الفن .. هو الذى يستحق كل هذا التصفيق .. ولكن الجمهور كان يصفق للراقصة مباهج ..

●●●

والأيام تمر ووراؤها النجاح وترتفع فرقة عبده الطبال إلى القمة .. أصبحت الفرقة هى النمرة الأساسية التى تشد الجمهور إلى كازينو البلابل .. وعبده يكره أن تسمى فرقته نمرة .. إنه ليس نمرة .. عبد الوهاب ليس نمرة .. وفرقة أحمد فؤاد حسن ليست نمرة .. وهو .. إنه كل شىء في هذا الملهى .. كل الآخرين نمر تمهد لظهور فرقته على المسرح .. بل حتى الخمور التى توزع على الموائد هى أقرب إلى أكواب

الشربات توزع تحية لفرقته .. إنه ليس نمرة .. إنه ليلة كاملة قائمة بذاتها كليالى أم كلثوم .. وهو يعيش بكل كيانه فى نشوة النجاح .. لقد نجح .. حقق الحلم الذى ولد معه .. أصبحت الطبلة هى الآلة الأولى وأصبح الطبال هو المايسترو .. أصبحت الفرقة الموسيقية هى طبال وليست فرقة قانونجى أو عواد أو فرقة لاعب جيتار كفرقة عمر خورشيد .. ونشوة النجاح ترتفع به إلى مستويات فنية جديدة وتدفع أصابعه لترقص فوق الطبلة رقصات جديدة .. رائعة .. ولكن هذه النشوة أغفت عينيه عن الحقيقة ..

إنه لا يدرى أن فرقته الموسيقية أصبحت تسمى فرقة الراقصة مباهج .. لا يدرى .. أن مباهج ليست إلا آلة فنية أخرى بجانب الآلات الثلاث التى يستأجرها ويحركها .. وعندما يصفق الجمهور فى نهاية الرقصة لا يزال يقوم واقفا بجانب مباهج وينحنى ردا على تصفيق الجمهور .. بل إنه يقف متقدما على مباهج .. ان التصفيق له هو .. الذى خلق هذا الفن .. هو الطبلة .. وربما لاحظ أن الجمهور يصفق فى نهاية الرقصة أكثر مما يصفق فى نهاية المقدمة الموسيقية التى يقدمها وحده بلا راقصة .. ولكن هذا لا يعنى شيئا .. ان الجمهور لا يصفق أكثر للراقصة ولكنه يصفق أكثر للعمل الفنى المتكامل أى بعد استكمال الموسيقى بالرقصة .. والتصفيق دائما له هو وللطبلة .. لا يمكن أن يقال أن الجمهور يصفق لغناء أم كلثوم أكثر مما يصفق لموسيقى عبد الوهاب .. إنه يصفق للعمل المتكامل الذى خلقه عبد الوهاب وتؤديه أم كلثوم كآلة موسيقية أخرى من آلات الأداء ..

وربما لاحظ عبده الطبال أن أموال النقوط تنهمر كلها على مباهج الراقصة .. لقد أصبحت تجمع فى الليلة الواحدة أكثر من خمسمائة جنيه أحيانا ألف جنيه إذا كان بين الجمهور أغلبية من براميل البترول .. و .. ولا مليم للطبلة أو للفرقة الموسيقية .. كلام فاضى .. إذ

الجمهور لا يحيى بالنقوط الراقصة مباهج وحدها ولكنه يحيى العمل الفنـى .. إن مباهج ليست إلا قطعة من هذا العمل الفنى ، وكل ما هناك أنها تقف كـآلة الكيس تتسلم الثمن .. آلـة الكيس ليست هى صـاحب المتجر .. صاحب الفضل ..

وقد فـرح عبده الطبال عندمـا بدأت شركات تسجيل الاسطـوانات والكاسيت تتهافت عليه .. إن التسـجيل لا يشمل الـراقصة طبعا .. إنه موسيقى خالصة .. موسيقاه .. مـوسيقى عبده الطبال .. وقد فوجىء عنـدما وجـدهم قـد أسموا الاسطـوانة التى طبعـوا عليهـا موسيقـاه «رقصة مبـاهج» .. لا يهم .. إنها فعلا رقصة مبـاهج .. والخطأ خطؤه لانه لم يتنبه إلى أنه كان يجب أن يطلق اسما على كل لحن من ألحانه ..

إن نشوة النجاح قد أصابتـه بنوع من الغرور .. أصبح لا يتصور شيئـا أقـوى منـــه ومن طبلتـه .. بل إنـه لم يكـن يهتم بأن الصحف لا تتكلم عنه انما تتكلم عن مباهج وتنشر صور مباهج وإذا جاء ذكره فهو طبال مباهج .. كل هذا لا يهتم به .. انه شـامخ مغرور ..

ولكن ..

مباهج نفسها بدأت تتعبه ..

لم يكن قد مر أكثر من ثلاثة شـهور على بـداية الفرقة عندما جاءت فردوس التى تقيم مباهج فى بيتها وابنـة عم زنوبة العاملة التى اشـترى منها مباهج .. جـاءت فردوس تطالبه برفع أجر مبـاهج .. إنه يعطيها خمسة جنيهات فى الليلة الواحدة ولو كان قد تركها فى طنطا لما وصلت إلى الجنيهات الخمســة ولو رقصت ثـلاثين ليلة .. ولكن فـردوس تلح وتشكو من المصـاريف .. وحياتك ياسى عبده خمســة جنيهات تكفى التـاكسى بـالكـاد .. اننى أتـرك البيـت لاصحب مبـاهج طـول الليل واضطـررت أن أبحث عن خـادمـــة لاولادى واسكت زوجى كل ليلـة بزجـاجة كونياك .. ويصرخ عبـده ويلتفت إلى مباهج .. ومباهج تحنى رأسها فى حياء .. الكلمة كلمتك ياسى عبده ..

هؤلاء النسوة الشماطات .. خمسة جنيهات فى الليلة .. مائة وخمسين جنيها فى الشهر .. تكفى مباهج وأمها وأم أمها وأباها وأبا أبيها .. تكفى حارة العوالم كلها .. وكان عبده قد اتفق مع برسوم المليجى صاحب كباريه البلابل على خمسين جنيها فى الليلة اتعابا للفرقة كلها بما فيها الراقصة .. خمسة من خمسين .. انها لا تستحق بالنسبة للفرقة خمسة من ألف .. وصحيح إنه رفع اتعابه إلى ثمانين جنيها فى الليلة بعد النجاح الذى حققه ولكن لماذا يرفع اتعاب مباهج وهى لا تستحق شيئا بغيره وبغير طبلته ..

ورغم ذلك فقد خضع ورفع أتعاب مباهج إلى ثمانية جنيهات فى الليلة .. وامتدت أطماع مباهج إلى النقوط .. وكانت قيمة النقوط توزع عادة على ثلاثة .. ثلث لصاحب الملهى والثلث للفرقة والثلث للراقصة .. ولكن لماذا يخص مباهج الثلث .. إنها آلة فنية متساوية مع بقية الآلات .. فكان يجمع الثلثين من قيمة النقوط ويوزعها على كل أفراد الفرقة بالتساوى بما فيهم هو ومباهج .. لم يكن يأخذ لنفسه أكثر من مباهج أو من مصطفى عازف النای أو من محفوظ عازف الجيتار أو من عبد الحميد عازف الأكورديون .. فلماذا تأخذ مباهج أكثر من أى واحد فيهم .. ورفض .. انها اشتراكية الفن .. ولكن بعد عام من الاصرار اضطر أن يستسلم ويخص مباهج بثلث قيمة النقود خصوصا وأن صاحب الملهى فرض نفسه كحامى حمى خزينة النقود وهو رجل لا يؤمن بالاشتراكية .. رأسمالى يستعمر الراقصات..

ومباهج تحتفظ دائما بسذاجة الفلاحة وخفر الفلاحة ولكنه يراها من بعيد وهى تجالس بسذاجتها وخفرها زبائن الصالة .. ولعلها أضافت إلى السذاجة والخفر النباهة .. فهى لا تجالس إلا أنواعا معينة من الزبائن .. إن الأستاذ رفعت مدبولى المنتج السينمائى المعروف أصبح من زبائن الصالة الدائمين .. زبائن مباهج .. والامير بركات

يقيم كل أسبوع حفلة ساهرة يدعو إليها صديقته مباهج وفرقة عبده الطبال .. إنها صداقة فنية .. عبده متأكد من ذلك ..

وهى مع سذاجتها وخفرها ونباهتها تزداد مطالبها .. وعبده لا يهتم بما تطلبه مادام بعيدا عنه .. ولكنها بدأت تطلب طلبات فنية .. سى عبده انى اتمنى أن أرقص على رق وتار .. والله عال .. انها تريد أن تقلب كيان الفرقة كلها .. تريد أن تهدم حياته .. تريد أن تذل بجانب الرق والتار .. مستحيل .. لقد ألغى الرق والتار حتى لا تبدو الطبلة كأنها آلة مساعدة وحتى يثبت أن الطبلة المصرية .. طبلة عبده .. تستطيع وحدها أن تغنى عن كل أدوات الايقاع .. مستحيل ..

وجاءته مرة أخرى .. سى عبده لماذا لا تضم للفرقة كمان .. اثنين ثلاثة .. أحس ان الكمان يملأ أذنى ويعدل مخى ويفتح شهيتى للرقص .. يامجرمة .. يا جاهلة .. إنك لا تعرفين ماذا فعل عبده الطبال فى عالم الفن .. لقد خلق شخصية الطبلة المصرية .. إنه خلق فنا مصريا جديدا كالفن الذى خلقه سيد درويش .. وأنت لا تساوين شيئا بجانب الطبلة .. الطبلة هى التى تحركك .. هى التى تأمرك .. والطبلة تأمرك ألا تضعى أذنيك إلا على نقراتها .. تقولين كمان .. انك لا تعرفين عن الكمان إلا أنه مظهر من مظاهر التجمل .. الكمان لا يساوى عندك أكثر من ذيل فستان أو حلق تشبكينه فى أذنيك للتجمل أمام المعجبين .. لا يابنت طنطا .. وعزة السيد البدوى لن ترى فى عمرك كمانا بين فرقة عبده الطبال ..

وعبده يتحمل مباهج ويسترد أمامها نشوته وغروره .. لابد أن هناك من يملأ عقلها بهذه المطالب .. انها جاهلة ثم انها منذ عرفته وهى تخافه وتحترمه فمن يحرضها عليه ويحاول أن يقضى بها على شخصيته الفنية .. ثم جاءت بالطلب الأغرب ..

إن زنوبة العالمة تريدها لترقص ليلة فى طنطا ..

إن مبـاهـج أصبح لها اسم كبير وسعـر كبير وزنـوبـة تـريـد أن تستغلها .. ولو سمح لها بأن ترقص مع زنوبة العالمة ليلة واحدة فلن تهدأ زنوبة إلا بعد أن تأخذهـا كل الليالى .. مستحيل .. هو الذى صنع مباهج وهـو وحده الـذى له حق عليهـا .. لا ترقص إلا لـه .. ومباهج تحاول أن تقنعه .. ليلة واحدة ياسى عبـده .. ان زنوبة صاحبة فضل علىّ ياأستاذ .. لا .. أبـدا .. ليس لاحد فضل عليك إلا أنا .. انتشلتك من دكـان العوالم لاجعل منك فنـانة .. انك اليـوم لا ترقصين هـز البطن ولكنك تـرقصين التعبير الفنى للنفس البشريـة .. فكيف تعـودين بهذا الفن إلى العـوالم وإلى زفـة العـروسـة .. ومبـاهـج تصر .. لا أستطيع يا أستاذ .. لا أستطيع اغضـاب ست زنوبة .. وسافـرت مباهج ليلتها إلى طنطا ..

إنها الليلة الأولى التى تظهر فيها الفـرقة الموسيقية على المسرح بلا مباهج .. وعبده يتحـدى .. انها فرقة موسيقيـة وليست فرقة رقص .. انها فـرقة عبـده الطبال وليس فـرقـة الراقصـة مباهج .. الجمهـور جمهـور مـوسيقى وليس جمهـور هـز البطن .. وبلغ من تحديـه أن رفض أن يقـدم موعـد الفـرقة بحيث تستطيع مبـاهـج أن تـرقص ثم تسافر بعد الرقصة إلى طنطا .. انه لا يخضع مواعيد الفرقة ومصيرها لاهواء راقصـة .. ورفض أيضا ما عرضتـه عليه زنوبـة بأن تصاحب الفرقة مبـاهـج إلى طنطا .. وثار .. انه لا يتعـامل مع عالمة ولا ينزل إلى مستـوى فـرق العوالم .. إنـه الموسيقـار عبـده الطبال .. وقـد كـان الموسيقار محمـد عبد الـوهاب يشترك ويسـاهم مع العـوالم فى احياء حفلات الأفـراح ولكنه كـان يفعل ذلك عنـدما كان مطـربا ثـم بعد أن انقطع عن الغنـاء وارتفع إلى مستـوى الموسيقار ارتفـع بنفسه فـوق مستوى ليـالى الأفراح .. بل أن عبد الـوهاب لم يلحن حتى اليـوم زفة

عروسة .. وهو أيضا .. الموسيقار عبده الطبال يجب أن يرتفع بنفسه فوق مستوى زفة العروسة ..

وقرر ليلتها أن يعتمد اعتمادا كاملا على الطبلة ..

الطبلة ليست فى حاجة إلى راقصة ..

وقضى اليوم يعد الفرقة بحيث يملأ الفراغ الذى ستتركه مباهج .. سيقوم النـاى بتقاسيم أطول .. ثم تقوم الفـرقة كلها بعزف مقطـوعة «حبك شغل بالى» .. ثم تقاسيم أسبانيولية على الجيتار .. ثم يشترك مع الأكورديـون فى حوار موسيقى .. الطبلة تدق والأكورديـون يرد عليها ..

وسأل برسوم المليجى صاحب الملهى :

ـ أين مباهج ..

وأجاب الأستاذ عبده فى برود :

ـ سافرت إلى طنطا ..

وصرخ برسوم المليجى :

ـ سافـرت .. ماذا يعنى أنها سـافرت .. ولم تـركت الفرقـة .. من سيرقص الليلة ..

وقال الأستاذ عبده وهو يلوى شفتيه امتعاضا :

ـ الفرقة ليست فى حاجة إلى راقصة .. انها فرقة موسيقية ..

وعاد برسوم المليجى يصرخ ساخطا :

ـ ماذا تقول يا حبة عينى .. ليست فرقة راقصة .. فرقة ماذا اذن .. فرقة رش شوارع .. فرقـة قزقزة لب .. اسمع يا أستاذ .. انى سأرسل فى استدعاء البنت فوفا الراقصة .. وترقصها ..

وقال الأستاذ عبده فى حدة :

ـ لن أرقص فوفا ولا غيرها ..

وصرخ برسوم :

ـ ستخرب بيتى يا عبده يا طبال .. الناس ستقوم وتحطم الصالة على دماغى ان لم نقدم لهم راقصة .. بل انى خائف ألا يرضوا بأى راقصة غير مباهج .. ألا تعرف قيمة مباهج .. انها كل شيء يا أستاذ..

ولم يستطع الأستاذ عبده أن يفر من إصرار برسوم على تقديم راقصة ، بل انه عندما فكر فى أن تمتنع الفرقة ليلتها عن العمل خاف أن يسلط عليه برسوم زبانيته من فتوات وخدم الصالة ..

وتعمد ليلتها أن يطيل فى المقدمة الموسيقية ، وأن يعطى الطبلة مجالا أوسع .. ليقنع نفسه أن الطبلة هى البريمادونا .. هى الراقصة .. وهى المايسترو .. وكأنه كان يحاول أن يدافع عن شرفه ويدارى جرحه ..

وانتهت المقدمة الموسيقية وظهر برسوم المليجى على خشبة المسرح يعتذر عن غياب الراقصة مباهج وكأنه يطلب الوقوف دقيقة حدادا على غيابها ثم قدم الراقصة فوفا .. واضطر الموسيقار عبده أن ينقر على الطبلة هذه النقرات الروتينية كدقات خشبة المسرح ليقدم بها الراقصة .. ثم اضطر أن يدق «مقسوم» وهى الدقة التى ترقص عليها الراقصة فوفا .. وأحس أنه عاد بالطبلة إلى حيث كانت .. عادت الطبلة إلى مؤخرة الراقصة ..

وليلتها لم ينم وكأنه يبكى أحلامه ..

إن مباهج تتغير .. انها تنتفخ بالغرور .. وحولها ناس يدفعونها إلى تحديه .. وإلى فرض مطالبها عليه .. وليعترف .. ان الفرقة فى حاجة إلى مباهج .. والطبلة لا تستطيع أن تستغنى عن مباهج .. ويجب أن يسيطر أكثر على مباهج .. أن يخضعها لارادته .. كيف .. ليتزوجها .. لقد كان يرتفع بنفسه عن مستوى الطبالين الذين يتزوجون راقصات.. ولكن .. الشغل شغل .. وليستسلم للمقدور ..

وعادت مباهج من طنطا فى صباح اليوم التالى ..

عادت تحمل سذاجتها وحياءها وذكاءها وكأنها لم تفعل شيئا

يمكن أن يغضب عبده الطبال .. وقال لها عبده بعد أن افتعل الترحيب بها مبتسما وبعد أن سمع كلامها عن زنوبة العالمة وعن الليلة التى احيتها فى طنطا :

ـ بت يا مباهج .. مارأيك .. لنتزوج ..

ونظرت إليه مباهج فى دهشة .. لقد مضى الآن عامان منذ أن اشتراها من زنوبة ولم يعرض عليها أبدا الزواج بل انه لم يحاول أن يلمسها ولو على سبيل القزقزة حتى ظنت أنه ناقص الرجولة فكل رجل يصادفها يحاول أن يقزقزها كما يقزقزون اللب ..

واختبأت وراء مظهر سذاجتها وحيائها وقالت :

ـ بلا زواج .. أنا تحت أمرك ياسى عبده ..

وقال فى حدة وهو يلوى شفتيه قرفا من هذه المرأة التى تعتقد أن الرجل يكفيه منها الجسد :

ـ قلت لك الزواج ..

وقالت وهى لا تزال تختبىء وراء مظهر حيائها :

ـ والنبى بلا زواج ياسى عبده .. أنا عمرى ما تأخرت عنك بشىء .. واشتدت حدته وقال كأنه ينهرها :

ـ إنى لا أريد شيئا .. الزواج لا يرتبط بشىء ..

ولكنى أتزوج لتصبح الفرقة الموسيقية فرقة شرعية ليس لأحد حق عليها ..

ثم خفت من صوته واستطرد مبتسما :

ـ إنها فرقتنا نحن الاثنين يا مباهج .. تعالى نعيشها نحن الاثنين ..

وقالت مباهج وقد بدأ ذكاؤها يغلب حياءها :

ـ إنى سأعمل بالسينما .. سى رفعت المدبولى سينتج لى فيلما .. وصرخ عبده الطبال :

ـ مادخل السينما فى الزواج ..

وقالت مباهج كأنها ترجوه :

ـــ يقولــون أن من تريـد النجاح فى السينما يجب أن تعـرف بأنها لا تزال عذراء .. لم تتزوج بعـد .. لى فكرة .. لنؤجل الزواج إلى أن أعمل فى السينما وبعدها فأنا تحت أمرك ياسى عبده ..

وارتعش عبده غيظا .. انها لا تريـد أن يعرف عنها أنها زوجة طبال وهى تحلم بـالعمل فى السينما ولعلهــا تتمنى أن تتـزوج مخرجـا أو ممثلا سينمائيا أو طبيبا كما يفعل بـاقى ممثلات السينما .. ان الطبال لا يمكن أن يشرف نجمة سينمائية .. وصرخ :

ـ أنا المسئول عنك فى السينما وبـلا سينما .. أنا عبده الطبال وانت لا تساوين شيئا بلا طبلة ..

وعادت تتوسل فى حياء :

ـــ لا تغضب منى ياســى عبده .. من أجل خـاطـرى عندك .. بـلا زواج.. وصرخ بكل صوته :

ـــ أنت طـالق .. أنت طـالق .. أنت طالق مـن الفرقـة .. طـالق من طبلتى .. طبلتى لا ترقص المومسات ..

ـ وكان كأنه جن ..

وفعلا طـرد مباهج من الفرقـة .. وكأنه يعرف أن بـرسوم المليجى صاحب الملهى لا يمكن أن يقبلـه بلا مباهج .. وإذا قبله فيفـرض عليه راقصة أخرى .. وهو يصر على أن يفرض وجـوده كموسيقار .. الطبلة وحدهــا تشد كل الجمهور .. وانسـحب من ملهى البلابل وقـدم نفسه لملهى ميامى .. بلا راقصة .. وصـاحب الملهى يتردد .. فرقة من أربعة عـازفين وبـلا راقصــة .. ولكنـه لا يستطيع أن يجازف بأجـر كبير .. عشرون جنيهـا فى الليلة .. أقل من الأجـر الذى بـدأت به فـرقة عبـده الطبال عندما كانت معها راقصة والذى وصل إلى مائتى جنيه فى الليلة الواحدة .. لا يهم .. ان عبده واثق أنه يستطيع دائما أن يرفع أجره ..

وبـدأت الليلة .. الفـرقـة بلا راقصــة .. أصـابع عبده تـرقص على

الطبلـــــة .. وأصابع مصطفى ترقص فوق الناى .. وأصابع محفوظ ترقـص فـوق الجيتـار .. وأصـــابع عبـــد الحميـد تـرقـص فـوق الأوكورديون .. ولكن الجمهور لا يهتم بـرقص الأصابع فوق النغم .. إنه يريد رقص البطن ..

وليلة ثانيـة .. وثالثة .. وصاحب الملهى لم يجد مكانا عنـده للفرقة وقال معتذرا :

ــ أنت فنـان عظيم يـا أستاذ عبـده ولكن فـرقتك تصلح فى حفلـة خيرية أو فى حفلة خاصة ولا تصلح فى كباريه ..

وخـرج بفـرقتـه يبحث عن ملهى آخـر .. وكـان يـدفع من جيبـه لأعضــاء الفرقـة فى ليالى البطـالة .. وطـالت ليالى البطـالة .. واعتـذر مصطفى عـازف الناى لانـه وجد عـرضا مجزيـا .. واعتذر محفـوظ عبدالحميد عـازف الأوكورديون لان عائلتـه انتقلت إلى الإسكندرية .. ومباهج كونت فرقة موسيقية خاصة بها ..

وعبده الطبال ينهار ..

يجب أن يعترف ..

يعترف بالفشل ..

وسحب أنهياره وفشله وانضم إلى فرقة الأحلام الذهبية ..

وجلس بطبلته على حافة الفرقة .. على آخر مقعد من المقاعد ..

والكمان يتوسط الفـرقة .. والجيتـار يزغرد فى المقـدمة .. والأورج يطلق زفة من جميع الأنغام .. و .. و ..

والطبلة بعيدة ..

إنها مؤخرة الراقة ..

وانتهت الراقصة علوية من رقصتها ..

واسقط عبـده الطبال رأســه بين كفيـه مستنـدا على طبلته وكأنـه

يبكى .. واقتربت منه الراقصة علوية ولمست كتفيه فى اشفاق وقالت فى صوت كأنه يترحم عليه :

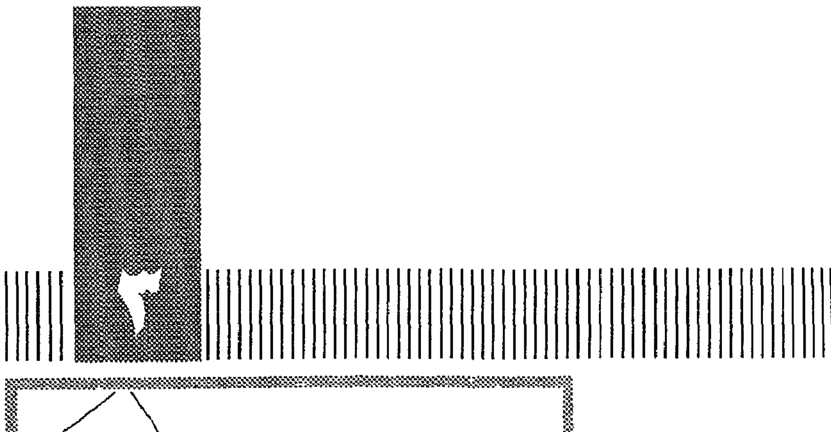
ـ مالك ياسى عبده .. قم معى .. انى خالية الليلة وتحت أمرك ..

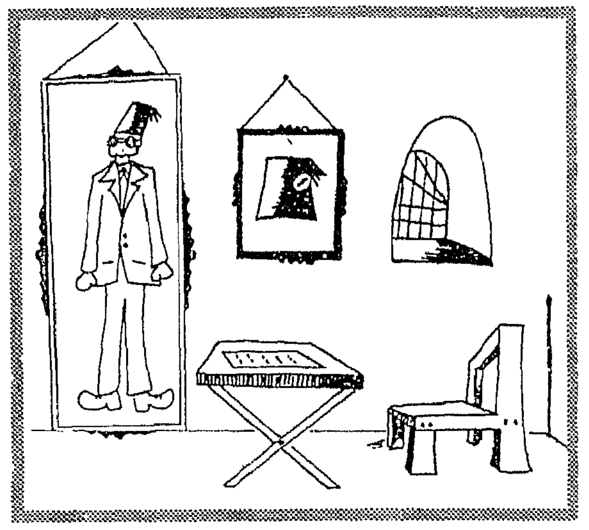
ورفع عبده الطبال رأسه صارخا :

ـ أبعدى عنى يا امرأة ..

ورفع الطبلة بين يديه وكأنه يهم أن يلقى بها ويحطمها فوق الأرض .. ولكنه توقف .. واحتضن الطبلة إلى صدره وابتعد عن الراقصة ..

تمــــت





قبل الوصول
الى سن الانتحار

قبل الوصول

إلى سن الانتحار

كان الأستاذ شفيق عبدالغفور أستاذ اللغة العربية يطوف بين صفوف الطلبة الممتحنين فى الثانوية العامة وهو متجهم الوجه حاد النظرات، وربما كان يفتعل هذا التجهم وهذه الحدة حتى يحذر الطلبة من الغش ويبدو أمامهم وكأنه مراقب لا يرحم، ولكن تجهمه كان فى الواقع يعكس حالته النفسية.. حالة تضج بالقرف واليأس والضياع وإحساس عجيب بأنه مقبل على الانتحار..

إنه فى انتظار أن يصدر بعد شهرين قرار إحالته على المعاش.. ما هو المعاش.. إنه قرار من الدولة تأمر فيه الموظف بالانتحار.. الانتقال من الحياة إلى القبر.. حتى لو كان القبر الذى أعدته له الدولة هى مقهى عكاشة..

ولعله يستطيع أن يهرب من الانتحار بالتفرغ لإعطاء الدروس الخصوصية.. إن دخله الشهرى من الدروس الخصوصية وصل فى بعض السنوات إلى ثلاثة أضعاف مرتبه ولو كان الطلبة المقتدرون يواظبون على الدروس الخصوصية من أول العام الدراسى حتى آخره فربما كان الآن قد استطاع أن يشترى شقة تمليك فى العمارة الجديدة التى تبنى بجانبهم وتكاد تطبق على أنفاس العمارة القديمة المتداعية التى يقيم فى شقة فى الدور العلوى منها منذ ثلاثين عاما..

ولكن أهالى الطلبة لا يحتاجون إلى الدروس الخصوصية إلا قبل الامتحان بشهرين.. وربما كان الطالب نفسه لا يريد الدرس الخصوصى لا لأنه واثق فى نفسه ولكن لمجرد ألا يتعب نفسه ويضع بوزه فى بوز مدرس ساعة أخرى بعد ساعات المدرسة.. والأهل هم الذين يفرضون عليه هذه الدروس وهم يلجأون إليها لا حرصا على ثقافة ابنهم والارتفاع بمستواه العلمى ولكن كرشوة يدفعونها للمدرس حتى ينجح ابنهم فى الامتحان.. كل شىء بثمنه. والنجاح فى امتحان المدرسة له ثمن.. وهم يحسبونها بالقرش.. إن الدروس الخصوصية ستكلف الأب خمسين جنيها لو دفعها فسيوفر على نفسه تكاليف إعادة السنة الدراسية لو سقط ابنه فى الامتحان..لا يهمه شىء إلا الامتحان حتى لو نجح ابنه بالغش.. المصيبة ليست فى الطلبة ولكنها فى الآباء.. وهو دائما يحس بأنه يمد يديه إلى الأب ليأخذ رشوة.. يحس من نظرة الأب وهو يدفع ومن ابتسامته الصفراء ومن الكلمتين السخيفتين اللتين يرددهما.. الاعتماد على الله ثم عليك يا أستاذ.. والأهل يحملونه المسئولية لو سقط الابن حتى لو نجح فى امتحان اللغة العربية التى يدرسها له وسقط فى امتحان الحساب..

وقد كان حريصا دائما على أن ينجح طلبة الدروس الخصوصية فى امتحان اللغة العربية.. كان حريصا على أن يحتفظ باسم تجارى كأستاذ لا يسقط من بين يديه طالب فى امتحان.. وربما كان حرصه يدفعه إلى تسهيل الامتحان على طلبته.. طلبة الدروس الخصوصية.. أن يحدد لهم الأسئلة ويدربهم على الأجوبة وهو غالبا ما يكون على علم بأسئلة الامتحان.. ان مكانته وعمره الطويل فى التعليم يوفران له طرق الوصول إلى الأسئلة حتى أسئلة الامتحانات العامة كامتحان الثانوية العامة.. انهم يقولون أن ذلك جريمة.. غش.. كيف يكشف

عن الأسئلة أمام الطالب قبل الامتحـان .. وقد أقنع نفسه أن هذا كلام فـاض .. إن المدرسـة الحديثـة فى التعليم لم تعـد تخفى عن الطـالب الأسئلة ولم تعـد تتقيد بما يعتبر غشا. الامتحـان لم يعد هـو امتحان الذاكـرة ولكنه أصبح امتحـان القدرة على البحث والتقصى للـوصول إلى الاجابات الصحيحة حتى أنـه أصبح يسمح للطالب أن يأخذ كتبه معه أثناء الامتحـان ويقلب فى صفحاتها حتى يقدر أنه وجـد الاجابات الصحيحة.. وهو مؤمن بالمدرسـة الحديثة.. إنه يعطى الأسئلة للطلبة ويعلمهم الاجابـة عليها فهم على الأقل تعلمـوا فى حدود هـذه الأسئلة بعد أن كـانوا جهلـة فى كل المادة التى يدرسـونها.. ولكن لماذا لا يطبق منطق المدرسة الحديثة إلا على طلبة الدروس الخصوصية؟

لأنهم الطلبة الـذين يعرفهم.. إنـه لا يعطى دروسا خصـوصيا إلا لعشرة تـلاميذ وعلى الأكثـر عشرين.. يعرفهم واحـدا واحدا ويعـرف عائلاتهم ويعـرف عقلياتهم فيستطيع بـذلك أن يعتبر نفسـه مسئولا عن كل منهم.. ولكنـه لا يستطيع أن يتعـرف على مـائة طـالب وأكثـر ويعتبر نفسه مسئولا عن كل منهم.. إن عـدد الطلبة فى الفصل الواحد يصل إلى ستين طالبا وهو مسئـول عن ثلاثة فصول.. كيف يستطيع أن يتعرف على كل منهم بل كيف يستطيع أن يتذكـر وجوههم.. زمان كان هو نفســه طالبا كان العـالم عالماً آخر.. كانـوا عشرين تلميذا فى الفصل.. وكان الأستـاذ يعرفهم واحدا واحـدا وكانوا يعرفـونه كأنهم يعيشـون معـه فى بيت واحد.. كـان للمـدرس هيبـة يرتعش أمـامهـا التلميذ.. وكان التلاميذ يقفون لـه ويضربون له تعظيم سلام فإذا مد يده ليصافح واحدا منهم انحنـى التلميذ ليقبل يد المدرس.. وكما قال شوقى:

قف للمعلم وفه التبجيلا.. كاد المعلم أن يكون رسـولا..

كانوا زمان يقولون هذا الكلام عن الأستاذ.. أما الآن فالمدرس ليس

رسولا.. إنه موظف يجرى وراء لقمة العيش ولا أحد يقف له تبجيلا..

حتى طلبة الدروس الخصوصية.. إنه ليس بينهم رسولا ومبجلا بل مرتشيا يأخذ رشوة لإنجاحهم.. وهم فى قرارة أنفسهم يكرهون الساعة التى يقضونها جلوسا أمامه ويطلبون له فنجان القهوة وبين شفاههم ابتسامات ساخرة كأنهم يحسبون فنجان القهوة علاوة يمنحونها له فوق أجره.. وهو فى قرارة نفسه يبادلهم نفس الشعور.. إنه يتعهد بإنجاحهم فى مادة اللغة العربية ولكنه فى نفس الوقت يتمنى أن يرسبوا فى بقية العلوم لأنهم لا يستحقون النجاح.. هذا الجيل لا يستحق النجاح وإذا نجح فنجاحه مزور.. مزيف.. نجاح الواسطة..

وبعد شهرين سيصبح على المعاش..

المعاش معناه أن يخلع ثياب الشغل.. أن يتعرى.. ولا يمكن أن يساعده شىء حتى الدروس الخصوصية على تغطية عورته.. عورة المعاش.. عورة فقدان الشخصية.. شخصية الوظيفة.. سيسير بعدها بين الناس كأنه يحمل كفنه ويستجدى الحياة..

●●●

ورفع الأستاذ شفيق عبدالغفور رأسه ونفخ صدره وشد على وجهه المتجهم ونظراته الحادة وأخذ يدور بين صفوف الطلبة المتحنين.. لا تلتفت إلى جارك يا أفندى.. الكلام ممنوع يا حضرة.. ويقف خطوة بجانب كل طالب كأنه يقوم بعملية تفتيش.. وهمس له طالب:

— لا أفهم هذا السؤال يا أستاذ..

ونظر إليه الأستاذ شفيق.. إنه ليس أحد طلبة الدروس الخصوصية بل ليس طالبا له.. إنه لا يعرفه ولا يمكن أن يكون مسئولا عنه وقال فى غل وهو يبتعد عنه سريعا:

— قد تفهمه العام القادم..

وطالب آخر وضع أمامه على مائدة الامتحان مصحفا كبيرا.. انكم لا تعرفون المصاحف إلا أيام الامتحان ولا شك أنك صليت الفجر حاضرا وصليت التراويح.. وربما قضيت ليلتك أمس بجانب ضريح الحسين تبركا به لعله يشفع لك عند الله حتى ينقذك من المصيبة الكبرى.. مصيبة الامتحان.. يا كفرة.. إنكم تفترضون أن الله لا يعلم ما فى صدوركم وما فى نياتكم.. إنكم تتعاملون مع مدرس المدرسة فتعطونه رشوة قبل الامتحان بشهر أو شهرين كما ترشون المدرس بأجر الدروس الخصوصية.. الله يا مغفلون ليس فى حاجة إلى رشوة.. ليس فى حاجة إلى الصلاة له.. إن الصلاة منحة من الله للإنسان حتى يطهر بها نفسه وينظم وينظف بها حياته وليس الصلاة منحة من الانسان لله.. وتذكر الأستاذ شفيق أيام صباه عندما كان فى عمر هؤلاء التلاميذ.. لقد كانوا يعيشون الإسلام.. وكان الله معهم فى كل لحظة ومحمد الرسول فى خواطرهم كأنه يقيم معهم فى نفس البيت.. وقد بدأ يصلى وهو فى الثالثة من عمره تقليدا لأبيه وأمه واخوته.. كان الطفل يحس بأنه لا يمكن أن يكبر ويكون رجلا إلا إذا صلى والبنت تحس أنها لا يمكن أن تصبح امرأة إلا إذا صلت كأمها.. كانت البنات يتعايقن ويتفاخرن بالصلاة كما يتعايقن هذه الأيام برقصة التويست والروك وكانوا يعايرون الطفل الذى لا يصلى ويهللون وراءه بأنه كافر وسيشوى فى النار.. وهو قد انتظم فى الصلاة منذ كان فى الخامسة من عمره وحفظ جزء عم من القرآن وهو لا يزال فى المدرسة الأولية وقرأ القرآن كله وهو فى المدرسة الابتدائية..

وكان أبوه يجمع العائلة كلها للصلاة خصوصا صلاة المغرب وكانوا ينتظمون خلفه فى فرحة كما ينتظمون حول مائدة العشاء.. العشاء الروحى.. غذاء النفس.. بل إنه يذكر أن أباه اكتشف فجأة أن

الصلاة لا تجوز وساقا الرجل مكشوفتـان حتى ركبتيه.. وكان أيامها يذهب إلى المدرسة الابتدائية وهـو بالبنطلون القصير الذى يكشف عن ساقيـه حتى ركبتيـه.. وكـان يصلى فى المدرسة خصـوصـا صـلاة الظهـر.. فماذا يفعل.. كيف يصلى وسـاقاه مكشـوفتـان.. وجد أبـوه الحل.. أصبح يـذهب إلى المدرسـة وفى حقيبته جـورب طـويل يغطى قدميـه حتى أعلى ركبتيه إلى مـا تحت حافـة بنطلونـه القصير فإذا ما حان وقت الظهر وضع سـاقيه فى الجورب وصـلى.. أيام. أيام المؤمنين وأبناء المؤمنين.. لقد كان فى كل مدرسـة جامع.. أما الآن فربما تجد فى المدرسة مصلى مهملة مختبئـة كأنها عورة لا تجمع إلا بعض السعاة وبعض المدرسين يؤدون الصـلاة هربا مـن وجه حضرة الناظـر وهو ما يدفعهم إلى الإفراط فى إيمانهم فتطول بهم الصـلاة ساعة أو ساعة ونصف الساعة.. يا منـافقون.. إن الله أدرى من حضرة الناظر بما فى صدوركم..

وابتسم الأستـاذ شفيق بينه وبين نفسـه ابتسامـة مسكينة كأنـه يعزى بها نفسـه.. إنه يعترف أنـه عاش مـرحلة أهمل فيهـا فريضـة الصلاة.. أصبـح يكتفى بصلاة الصبح وأحيـانا يهمل أيضـا صلاة الصبح، وأبوه لا يحاسبـه ولا يراجعـه ثقة فيه ولأنـه كان يحرص إذا ما حان وقت الصلاة وهو بجانب والده وقام الوالد يصلى صـلى معه.. وازدادت ابتسامته مـرارة وهو يتذكر أنه حـدث أن صلى بجانب أبيه دون أن يتوضـأ حتى يقنع أبـاه بأنه كان قد أعـد نفسه للصلاة وربما تكاسـلا عن الوضوء خصـوصـا فى أيام برد الشتـاء.. إهمال.. شقاوة شباب.. أو لعله أيامهـا كان يجتاز سن الضياع.. السن التى لا يكتفى فيها المخلـوق بما يقال له ولا بما يكتب لـه حتى لو كان القـرآن.. انه يـريـد أن يكتشف كل شىء بنفسـه.. أن يكتشف الله.. كيف يكتشف الله.. مستحيل.. ويضيع فهمـه.. إنـه ضـائع فى فهم كل مـا يعيشـه..

ضائع حتى فى فهم هـذا الزى الـذى يرتديـه.. من فرضـه عليه.. ومن اختار لـه هذا البنطلون وهـذا الجاكت وهذا القميص وهـذا الكرافت، ولماذا لم يختر لـه الجلابيـة أو القفطـان أو السروال الاسكنـدرانى.. ولماذا يستسلم لما هو مفـروض عليه.. لماذا لا يذهب إلى المدرسـة وهو مـرتد الجلابيـة.. ولماذا لا يتصور الله كما يصـوره لـه خيالـه لا كما يصـورونه لـه.. ومع هـذا الضياع يتمـزق كل شىء.. يتمـزق الخير ويتمـزق الشر ويتـداخـلان بعضهما فى بعض فـلا يـدرى أين الخير ولا أين الشر..

وتنهد الأستـاذ شفيق حسرة على نفسه.. لقـد عاش هـذا التمزق.. وبسرعة خطـا الأستاذ شفيق كأنه تذكـر شيئا واتجه إلى حيث يجلس الطالب الذى يضع أمامه المصحف الكبير.. ثم رفع المصحف بين يديه وأخذ يقلب فى صفحاته صفحة صفحة بتمعن وتدقيق..

إنه تذكر أنـه حمل معه وهو فى امتحان البكالوريـا مصحفا كهذا.. أصغر قليـلا من هذا المصحف.. ولم يحملـه لمجرد التبرك ولكنـه كان يعـانى جهلا فى اللغـة الانجليـزية وكـانت أيامهـا هى اللغـة الثانيـة لا يستطيع الفرار منهاويجب أن ينجح بها إذا أراد أن يكون من حملة البكـالـوريـا.. فكيف ينجح وجهلـه يصل بـه إلى درجـة الصفـر.. واستعان بكتـاب الله وسجل بين كلماته كل الكلمات الانجليـزية التى قدر أنها يمكن أن تعينـه على النجاح..إن القـرآن أنزل لإنقـاذ وإسعاد البشرية وهو لا يخرج بـه عما أنزل له.. انه يلجأ إليـه لإنقاذ نفسه من السقوط وإسعاد نفسه بالنجـاح.. ويومها وضع المصحف أمامه على مـائدة الامتحـان كما يفعل هـذا الطـالب.. ولكن المراقب لم يـرحمه.. كانت المراقبـة على أيامـه أشد وأعنف ممـا هـى عليه الآن. وكـان عدد الطلبة قليـلا تسعهم عينا المراقب.. وقد جـاء إليه وأمره أن يـرفع هذا المصحف من أمـامـه ويضعـه فى جيبـه وهـو يقـول لـه أن التبرك

والاستعانـة بالله هما بـالإيمان وليسا بالتعلق بـا لمظهر.. وقـد اضطر يومها أن يخفى المصحف فى جيبـه ثم غافل المراقب وأخرج المصحف وأخذ يبحث بين صفحاته.. وضبطـه المراقب وانقض عليـه ولكنه لم يقبض عليه إنما عاد يقـول له فى حزم.. إذا أردت أن تخفف عن نفسك بـالقرآن فيكفيـك ترديـد الفـاتحة.. ولم يجرؤ بعـدها على اللجـوء إلى المصحف.. وسقط فى البكالوريا.. ملحق فى اللغة الانجليزية..

وقد نجح فى الملحق ونـال البكالوريا بعـد أن قضـى أجازة الصيف وهو يتلقى دروسا خصوصية فى اللغة الانجليزية من مدرس المدرسة مستر «طومسون»..

لقد كان بينه وبين مستر «طومســون» ثأر قديم فهو الذى حرض التلاميـذ على ضربه وتمزيق ثيـابه وخطف ساعتـه فى مظاهـرات عام ١٩٣٥ كـان ضرب «طومســون» هـو ضرب بـريطانيـا والتحـرر من «طومسون» هو التحرر من الاستعمار البريطـانى.. وعندما ذهب إليه وهـو فى حاجـة إلى الـدروس الخصوصيـة بـدأ مستر «طومســون» ينتقم.. لقد صمم على أن يكـون الدرس الواحـد بجنيه كـامل رغم أنه كان يتعامـل مع بقية الطلبة بسبعين قرشا للـدرس واشترط أن يذهب إليه شفيـق فى بيته لا أن يذهب هـو إليه.. وقبل شفيق وقبـل والده أن يدفع فقـد كانت البكالـوريا أيامهـا فى قيمة وسام الاستحقـاق هذه الأيام.. ولم يكتف «طومسون» بهذا بل كـان لا يكف خلال الدرس عن إهانـة شفيق.. أجب يا حمار.. إفهـم يا غبى.. إنكم لا تسـاوون شيئا لماذا لا تبقون فى بيوتكم وتكتفون بالفول المدمس..وقد كان المدرسون أيامهـا يتمتعون بحق لعن أى تلميـذ ما عـدا مستر طومســون وبقية المدرسين الانجليـز خصوصـا بعد ثـورة ١٩٣٥.. ولم يكن يستطيع التهجم على تلميذ وهـو فى المدرسة وأمـام بقية التلاميـذ.. ولكنه الآن ينفرد بشفيق فى بيته ويمتع نفسه بحق لعنـه.. وعندما ثار شفيق مرة

قام طومسون وشده من رقبته وأوقفه أمامه قائلا.. الآن.. يجب أن ندخل فى مباراة للملاكمة ردا للشرف.. ولم يكن شفيق يستطيع أن يلاكم ولو فأرا.. طول عمره يحتفظ بقوته فى لسانه.. وانهال عليه طومسون بلكماته حتى اكتفى.. ثم احتضنه ضاحكا معتذرا بأسلوب التقاليد الانجليزية.. لا يهم.. لقد نجح سنتها فى امتحان الملحق ونال شهادة البكالوريا.. علقة وفرت عليه عاما من عمره.. ولو أنه قد سقط فى الامتحان..

وشفيق واقف يقلب فى صفحات المصحف الكبير الذى رفعه من أمام الطالب.. انه لا يستطيع أن يكشف شيئا مكتوبا بين كلمات القرآن الكريم.. هو أيضا استطاع أن يكتب الكلمات الانجليزية بين الآيات المباركة دون أن يكشفها أحد.. أيام زمان.. أيام الضياع والتمزق.. وقد كفر عن كل هذه الأيام.. إنه منذ وصل إلى الدرجة الرابعة وقد وهب نفسه لله.. لم يعد يكتفى بصلاة الفرض بل يصلى معه السنة والتراويح.. ولم يعد يكتفى بقراءة القرآن الكريم ولكنه يرتله بينه وبين نفسه.. ويتغنى به بعد أن حرم على نفسه التغنى بأغانى أم كلثوم أو عبدالوهاب أو هذه النهقات التى تملأ آذان شباب هذه الأيام.. وقد أدى فريضة الحج مرتين.. لماذا لا يقرر الانتحار فى مكة.. يقصد أن يقضى سنوات ما بعد المعاش يعمل مدرسا فى السعودية.. يسر لى يا رب..

وأعاد المصحف إلى مكانه أمام الطالب وهو يقول له.. التبرك والاستعانة بالله يكونان بالإيمان لا بالتعلق بالمظهر..

وابتعد عن الطالب..

ولكنه لن يرحمه من مراقبته..

●●●

والأستاذ شفيق عبدالغفور يلف حول صفوف الطلبة الممتحنين فى

شهادة الثانوية العامة وهو لا يزال مصرا على الاحتفاظ بوجهه المتجهم ونظراته الحادة.. وإذا التقت به عينا طالب نظر إليه فى سخط وقرف حتى يبدو كأنه يهم أن يبصق فى هذا الوجه المتجهم.. لماذا لا يتركهم فى حالهم ويستريح جالسا فى هذا الركن أو ذلك كما يفعل بقية المراقبين.. إن هناك مراقبين يبدون كغضب الله ومراقبين يبدون كرحمة الله..

والأستاذ شفيق لا يهمه إن كان ثقيلا أو خفيفا على قلوب الطلبة.. كل ما يهمه هو أن يرضى الله ويرضى ضميره ولم يفسد هذا الجيل إلا أنه لم يعد مهما لديه إرضاء الله ولا إرضاء الضمير يكفى إرضاء الرئيس.. أى رئيس..

وتعلقت عينا الأستاذ شفيق بطالب يجلس متفرغا كله لأوراق الامتحان كأنه يحلق معها بعيدا عن زملائه وبعيداً عن اللجنة.. وهو مرتد قميصا لامعا على لحمه.. وساقاه ممتدتان تحته داخل بنطلون ضيق أزرق مما يسمونه بلوجينز وشعره الطويل مهدل فوق قفاه وفوق جبينه..

إنه من هذا النوع من شباب هذه الأيام..

إنه حاتم وهو يعرفه رغم أنه ليس من طلبة الدروس الخصوصية.. كل المدرسة تعرفه.. إنه من هذا النوع من الطلبة الذى لا يحدد نشاطه فى مجال واحد.. إنه فى كل مجال.. تحس به فى مجال الرياضة.. وفى الفن.. وفى مجال الرحلات المدرسية.. وفى كل حفلة.. وهو مؤدب جدا.. وسافل جدا.. وهادىء جدا.. ومجنون جدا.. ومحبوب جدا.. ومكروه جدا.. إنه دائما «جدا».. فى أقصى درجات التطرف.. ويصل إلى درجة جدا فى إطلاق شعر رأسه وفى اختيار ثيابه الغريبة المحزقة جدا.. وربما كان ما يغفر له دائما أنه أيضا ناجح جدا.. النجاح الذى يغيظ أحيانا بعض المدرسين لأنه لم يكن فى

حاجة أبدا إلى درس خصوصى ولم يسقط أبدا فى امتحان، وربما كان هذا هو السبب الذى جعلهم يتجمعون ضده ويسلطون عليه ناظر المدرسة حتى يقص شعره ويقلع عن ارتداء هذه القمصان الحريرية الشفافة فوق لحمه وهذه البنطلونات المحزقة.. وقد استجاب لهم يوما فعاد إليهم وقد قص شعر رأسه ملليمترين لا أكثر وعندما لم يسكتوا عنه عاد إليهم وقد قص شعر رأسه بالموس وارتدى معطفا واسعا ينزل حتى قدميه فأصبح منظره أكثر إثارة داخل المدرسة.. منظر مثير جدا ومضحك جدا.. كأنه تعمد بهدلة وإغاظة المدرسين الذين طالبوه بقص شعره..

وعاد الأستاذ شفيق يبتسم بينه وبين نفسه وهو يتذكر نفسه فى الثلاثينات. لقد ظهرت أيامها موضة البنطلونات الواسعة فوق القدمين.. واسعة جدا حتى تغطى الحذاء كله.. وكانوا يسمونها بنطلونات شارلستون.. وقد حاول أيامها الابتعاد بنفسه عن هذه الموضة.. إنه طالب هادئ متدين ولا يصح له الانقياد إلى هذه التقاليع.. ولكن لماذا.. إنها موضة حشمة لا تكشف عورة بل إنها أقرب إلى الاقتباس من زى الجبة والقفطان اللذين يتسعان فوق الحذاء.. ربما كان أيامها يحاول أن يقنع نفسه كما تقنع البنات أنفسهن هذه الأيام بأن ارتداء البنطلونات أكثر حشمة من ارتداء الثوب القصير رغم أنهن يعلمن أن البنطلون أكثر إثارة حتى من المايوه.. إنه تحديد صريح لكل مفاتن الجسد وكل عوراته.. لقد حرم على ابنته ارتداء هذه البنطلونات منذ أن ظهرت.. ولكنه.. على أيامه.. لم يستطع أن يقاوم الشارلستون، وعندما ذهب إلى الترزى ليفصل له بدلة العيد أوصاه ببنطلون شارلستون.. وثار والده.. ولكن والده لم يستطع شيئا ربما لأنه كان قد دفع ثمن البدلة وإن كان قد قضى شهورا يعايره بهذا الشارلستون كما يعايرون طلبة هذه الأيام بالبلوجينز..

ومن البنطلون الشارلستون ظهرت موضة أخرى لشباب الثلاثينات.. موضة البريانتين.. وكانت التقاليد أيامها تفرض على الطلبة أن يقصوا شعورهم نمرة «٢».. أى أن يكون الشعر قصير كشعر رأس طلبة الكلية الحربية.. ولكن مع ظهور البريانتين بدأت الشعور تطول ولم تصل إلى ما وصلت إليه شعور شباب هذه الأيام من الطول ولكنها وصلت إلى مستوى الامتداد حتى حافة الاذنين ثم تدهن بالبريانتين.. هذا العجين اللزج.. فيبدو الشعر مضغوطا لزجا يلمع ويبرق كأن الشباب يحمل فوق رأسه كلوبا مضيئا.. وهو لم يستطع أن يقاوم أيضا موضة البريانتين.. إن الشباب يندفع إلى كل ما هو جديد.. ولكنه لم يستطع أن يواجه والده فاشترى البريانتين من مصروفه الخاص وكان يدهن به شعره فى الخفاء وهو خارج البيت ثم يعود ويغسل شعره بالماء الساخن والصابون قبل أن يراه والده.. وتحمل طويلا ثورة والده عندما بدأ يترك شعره يطول مستعينا بأمه فى تهدئة الثورة.. كل الأولاد طالت شعورهم يا أبو شفيق.. ولكنه عاد من تلقاء نفسه وقص شعره نمرة «٢» قبل الامتحان بشهرين تبركا بالتقاليد ولأن الحشمة من الإيمان والإيمان مهم جدا أيام الامتحانات.

●●●

وخفت حدة نظرات الأستاذ شفيق وهو ينظر إلى حاتم كأنه يغفر له شعره الطويل وبنطلونه البلوجينز ولكنه عاد بسرعة واحتدت نظراته.. إن لهذا الطالب ذكرى لا يستطيع أن يغفرها له.. لقد كان منذ عامين تلميذا أمامه فى الفصل وكان متعبا لا يكف عن إثارة المشاكل.. وهو يستطيع أن ينسى دائما مشاكل الطلبة إلا مشكلة سببها له هذا الطالب..

كان مديرا ظهره للتلاميذ داخل الفصل وهو يكتب على السبورة

درسـا فى قـواعـد النحـو وإذا بـه يسمع صـوت مـوسيقى تضج فى الفصل.. موسيقى راقصة.. وانتظر قليلا كأنه لا يصدق أذنيه ثم أدار ظهره بسرعة ليواجـه التلاميذ وبنفس السرعة سكتت الموسيقى ورأى التلاميـذ ينظرون إلى خارج نـوافذ الفصل كأن هـذه الموسيقى جاءت من الخارج.. لا يمكن.. إنه ليس مغفـلا.. وصرخ.. من الخسيس عديم التربية الـذى فعل هذا.. ولم يجب أحـد من التلاميـذ.. وبسرعة انطلق نحو التلميـذ حاتم وفتح غطاء الـدرج الذى يجلس إليه.. لابد أنـه قد أخبأ فيه فـونوغرافا أدار عليـه اسطوانة انطلقت منهـا هذه الموسيقى. ولكن لا شىء فى درج حاتم.. وعـاد يصرخ.. من فعل هذا هـو عار على أهلـه وعلى المدرسـة.. ويستحق الشنق.. وتـريث قليـلا حتى هـدأت نفسه ثم عـاد يديـر ظهره إلى السبـورة ليستكمل ما كـان يكتبه.. وفى نفس اللحظـة انطلقت الموسيقى الـراقصة.. وعـاد يـواجـه التلاميـذ ليجدهم ينظرون فى براءة من خلال نوافذ الفصل..

وصرخ:

— كل تلميذ يفتح الدرج الذى أمامه..

وفتح كل تلميذ درجه وهو يقـذف بغطائه بعنف فتتوالى فى الفصل فـرقعات كأنها صـوت بنادق تطلق.. ومـر على الأدراج.. لا شىء.. إلى أن وصل إلى درج التلميـذ محمـد عبدالعـاطى فـوجـد فيه ريكـوردر صغير فى حجم كف اليد.. آلـة غريبة عليه لم يعـرف أنها ريكوردر إلا بعد أن حقق فيهـا.. ولكن مستحيل أن يكون عبدالعاطى هـو صاحب هذا الريكوردر ولا هو الذى أداره.. إنه أهدأ تلميذ بين الخمسين تلميذا الذين يجمعهم الفصل.. وهو مفرط فى تدينه.. وبصراحة هو أفقرهم.. لا هو ولا أبوه يمكن أن يعرفا مثل هذا الريكوردر.

وأخذ الأستـاذ شفيق الريكـوردر بين يديـه ثم أمر جميع تـلاميذ الفصل بأن يبقـوا أدراجهم مفتـوحـة ويقفـوا على أقـدامهم ويظلـوا

وقوفـا.. ثم نادى التلميـذ حاتم وأمـره أن يخرج من الفصل وينتظره عند باب حجرة حضرة ناظر المدرسة.

وخرج حاتم من الفصل بلا مبـالاة وهو يعبث بأصابعه فى شعره الطويل..

وقال الأستاذ شفيق:

— يا عبدالعاطى انى متأكد أن هذا الريكوردر لا يخصك..

وقال عبدالعاطى فى صوته المريض:

— لا .. لا يخصنى..

وقال الأستاذ شفيق:

— من أعطاه لك؟

وقال عبدالعاطى كأنه يهم بالبكاء:

— لم يعطه لى أحد..

وقال الأستاذ شفيق فى حدة وغيظ:

— ولكنى وجدته فى درجك..

وقال عبدالعاطى وكأنه يرتعش:

— حضرتك الذى وجدته.. لا أنا.

وصاح الأستاذ شفيق:

— يـا عبـدالعاطى لا تكـذب.. إنى أعـرف أنك تصلى وأنك مـؤمن والكذب حرام..

وقال عبدالعاطى بصوته الباكى:

— أنا لا أكذب ولا أعرف شيئا..

و...

ولم يستطع الأستـاذ شفيق أن يصل إلى شـىء.. لا عبـد العـاطى ولا أحـد مـن الخمسين تلميـذا يـريـد أن يتكلم.. أو يعترف بشـىء.. وكانت حصة اللغة العربيـة قد انتهت وترك شفيق التلاميذ وذهب إلى

حضرة الناظر يشكـو إليه حاتم.. يجب أن تتخـذ اجراءات تكون عبرة لأمثالـه من التلاميذ.. ولكن لا شىء يثبت ضـد حاتم وكل ما وعـد به حضرة الناظر هو أن يستدعى ولى أمـره ويشكو إليه.. وشفيق لا يزال يحتفظ بالريكوردر معه وهو بينه وبين نفسه يتعجب من الخطة التى وضعها التـلاميذ.. كيف استطـاعوا أن ينقلـوا هذا الـريكوردر بهذه السرعة حتى وضعوه فى درج عبدالعاطى.. والتـلاميذ يتحايلون عليه أن يعيد إليهم الريكوردر يا أستاذ.. الريكوردر يا شفيق أفندى.. وهو يتجـاهلهم إلى أن مـر أكثر من أسبـوعين وكـان التـلاميذ حـريصين خـلالها على ألا يضايقـوا الأستـاذ شفيق فترك لهم الريكـوردر على المائدة المخصصة له داخل الفصل عند انتهاء الحصة كأنه لا يريد أن يعرف صاحبه..

وهو متأكد أن التلميـذ حاتم هو صاحب هذا الـريكوردر.. إنه من الطبقـة التى تعيش مع هـذه الأشيـاء وتعيش الموسيقى الـراقصـة.. لا شك أنه يـرقص كل يوم مع فتـاة من الذين يسمـع عنهن.. فتيات نادى الجزيرة وخلافه.. وقد رآه مرة مع فتاة فى حديقة الأندلس.. كان الأستاذ شفيق قـد صحب زوجته يوم الجمعة إلى هـذه الحديقة ورأى حاتم وفتاتـه.. فارتبك شفيق.. من الذى أتى بهذا التلميـذ إلى هنا.. إنه من طبقة ليست فى حاجة إلى الحدائق العـامة.. تكفيهم حدائق النوادى وحدائق تـرعة المنصورية.. ثم إنـه لا يجب أن يرى أحد من تـلاميذه زوجته.. ليس لأن زوجتـه فضيحة ولكن لأنه لا يجب أن يـرفع الكلفة بينـه وبين التـلاميذ.. إنهم سيجعل مـن زوجته نكتـة يتنـدرون بها عندما يبدأ حاتم فى وصفها لهم.. وقد حاول يومها أن يتدارى بزوجته بعيـدا عن حـاتم وعندمـا وجـد نفســه فى مـواجهته تجاهلـه وكأنـه لا يعرفه..

وابتسم الأستاذ شفيق بينـه وبين نفسه مرة.. الحمـدلله أنه التقى

بالتلميذ حاتم فى حديقة الأندلس، لقد سبق أن التقى بتلميذ آخر من تلاميذه فى صالة صفية حلمى.. كان ذلك قبل أن يتزوج وكان من حقه أن يعيش شبابه حتى ولو كان مدرسا.. وكان قد خصص كل ليلة جمعة ليعيش هذا الشباب ومن ضمن ما عاشه التردد على الصالات مع أصدقائه.. وفوجىء عندما وجد هذا التلميذ أمامه فى الصالة.. لم يكن يصدق أن الصبية فى سن السادسة عشرة والسابعة عشرة يمكن أن يترددوا على الصالات.. واحتار يومها هل يحتفظ فى الصالة بشخصية الأستاذ أمام التلميذ أم ينسى أنه أستاذ وأن هذا تلميذ.. كلاهما من زبائن الصالة.. وقد حرص كل منهما فى بداية الليلة أن يتباعد عن الآخر.. ولكن الأستاذ بدأ يخشى التلميذ.. إنه سيعلن الخبر ويتندر به بين باقى التلاميذ.. من الأفضل أن يتقرب إليه ويكسبه حتى يأمن شره.. وفعلا تعمد ليلتها أن يبتسم للتلميذ من بعيد ورحب التلميذ بابتسامته وجاءه مصافحا واضطر الأستاذ شفيق أن يدعوه إلى كأس.. ماذا تشرب.. ويسكى.. وضحك شفيق وهو يردد نكتة بايخة.. من يصطاد الآخر.. أنت تصطاد الويسكى أم الويسكى يصطادك.. وطلب للتلميذ كأس الويسكى.. ولكنه لم يتمسك به على مائدته وتركه يعود وينضم إلى بقية أصدقائه بعد أن اتفقا على أن يكونا أصدقاء..

والصداقة إئتمان على السر، ولن يعلم أحد بمجال صداقتهما.. أثقل صداقة تحملها الأستاذ شفيق فى حياته..

وانطلقت ضحكة داخل صدر الأستاذ شفيق من خلف وجهه المتجهم وعينيه الحادتين وهو يعود بنفسه إلى ذكريات الثلاثينات.. لقد حدث أيامها نفس الشيء.. كان قد وصل إلى السنة الثانية فى المدرسة الثانوية وكان قد اكتمل سن البلوغ.. أصبح يعانى حاجته كذكر مكتمل.. ولكنه لم يكن جريئا حتى يكشف عن حاجته وكان

يكتفي من فرحتـه بمتعته الجديـدة بالاعتماد على نفســه. وربما كان مفـرطـا فى استنـزاف نفســه ولكـن هكـذا كل الصبيـة فى أوائل سن البلوغ.. إلى أن عرف صـديقه «مهدى» وجاء مـرة يدعوه.. إلى أين.. إلى «وش البركة».. إنــه يسمع عنها ولا يعرفهـا.. ومهدى يعـايره.. ألست رجلا بعـد.. يا خيبتك.. إن الليلـة ليلة الجمعـة.. واستسلم وذهب معه إلى حى الدعـارة.. محترفات بيع المتعـة وتعلم.. تعلم المرأة وتعلم ليلة الجمعة وأدمنها وكان أيامها فى الرابعة عشرة من عمره..

إلى أن كان يوم خميس.. ليلة جمعـة.. وذهب مع أصدقائه إلى وش البركة وكـان قد تعود أن يختـار دكان علويـة من بين دكاكين الحى.. إنها صـديقة الطلبـة.. وفوجـىء بمتولى أفنـدى أستاذه فى المدرسـة.. أستـاذ الحسـاب.. يخرج مـن نفس الدكـان.. وارتبك كل منهما أمـام الآخـر.. ثم تجاهل كل منهما الآخـر.. لا سلام ولا كـلام.. ان متـولى أفندى كان أقسى مـدرس فى المدرسة.. لا يرحم.. ولا يكف عن الضرب واللطش والتذنيب ولعن الأب، وكان كل ذلك مباحا ومن حق المدرسين أيـامها. فكيف يصل متـولى أفنـدى إلى وش البركة.. هل جـاء ليعطى درسا لعلـوية ويضربها ويلعن أبـاها كما يفعـل مع التلاميـذ.. أم أنه زبون..

وقالت له علوية ضاحكة:

— متولى أفندى زبون قـديم.. وزبون خيبة.. ولا أقبل منه أقل من عشرة قروش.. أنت وبقيـة التلاميذ الـذين تدفعون خمسـة قروش.. أنا صديقة الطلبة حتى لو ببلاش..

والله زمان.. كـانت المرأة فى الحى الراقى حـى «وش البركة» بعشرة قـروش.. والمرأة فى الحى الشعبى حى «الواسعـة» بخمسة قـروش.. وفتح عينك تاكل ملبن.. رددها شفيق فى خيالـه كأنه يعيش أيام زمان والـذى حدث بعـد ذلك تطـور عجيب.. أصبح هنـاك نوع من تبـادل

الاحترام بين متولى أفندى والتلميذ شفيق.. ولم يعد متولى أفندى يضرب شفيقا أو يلعن أباه بل كان يتبادل معه التحية كلما التقيا حتى داخل المدرسة وكأنهما رجلان من زبائن حى واحد.. حى وش البركة..

●●●

وزم الأستاذ شفيق شفتيه كأنه يلوم نفسه.. لماذا يتذكر أخطاءه حتى يبرر أخطاء تلاميذه.. بالعكس.. إن أخطاءه يجب أن تكون رادعا لتلاميذه حتى لا يخطئون مثلا.. يجب أن يحمى تلاميذه من أخطائه..

لعلها ليست أخطاء..

إنها طبيعة الحياة البشرية..

وربما كان الإنسان لا يجد الصحيح إلا إذا وقع فى الخطأ، وهو شخصيا لم يفكر فى الزواج إلا بعد أن تقابل مع تلميذه فى صالة صفية حلمى..

وشعر الأستاذ شفيق بنوع من الرحمة.. رحمة على نفسه ورحمة على التلاميذ.. ووجد نفسه يتجه إلى التلميذ الذى شكا له من أنه لا يفهم السؤال، وانحنى بجانبه.. هل فهم.. لا لم يفهم بعد.. وقضى دقائق يفهمه رغم أنه ليس من طلبة الدروس الخصوصية.. مجانا لوجه الله..

ورفع عينيه ومدهما إلى بعيد حيث يجلس التلميذ مدحت عبدالرؤوف المرجوشى..

إنه منذ أول يوم فى الامتحان وهو يتجاهل هذا التلميذ..

كأنه يخشاه..

إنه ابن سيادة الوزير..

عاد الأستاذ شفيق عبدالغفور يتطلع من بعيد إلى التلميذ مدحت عبد الرؤوف المرجوشى ابن السيد الوزير وهو جالس بين الطلبة

المتحنين فى الثانـوية العـامة.. انـه لا يتعمد التبـاعد عنـه ولا يتجنبه ولا يخافه أو على الأصح لا يخاف آبـاه الوزيـر.. الوزراء هـذه الأيام ليس لهم هـذا الهيلمان الـذى كـان لهم قبل الثـورة.. بل إن الشعب لا يعـرف معظم الوزراء ولا حتى يعـرف أسماءهم لأن الوزيـر ليس وزيـرا سياسيـا، بل ربما كان كثير من الـوزراء قد اختيروا للـوزارة لعدم اشتغالهم بالسياسة.. ليست لهم سوابق سياسية فالوزير الآن هـو سكـرتير.. مجرد سكـرتير فحسب.. سكـرتير الـدولـة لشئـون التعليم.. سكرتير الـدولة لشئون المواصـلات.. و.. و.. ولقب سكـرتير لا يقلل من قيمـة الـوزيـر بل يـرفعه إلى مستـوى وزراء أمـريكـا.. والوزراء فى أمـريكا يحملـون لقب سكرتير دولـة.. وكل منهم هو على الأصح ليس سكرتير الدولة ولكن سكـرتير رئيس الدولة.. أى سكـرتير رئيس الجمهورية.. وهو نفس الـوضع عندنا فى مصر، وكان يجب على الثورة منذ أول أيـامها أن تلغى لقب وزير كما ألغت ألقاب البـاشوية والبكـوية والأفنـديـة وكما ألغت الطـربوش.. ولكـن الثورة لا تـزال متمسكة بتقـاليد الحكم الانجليزى.. وقـد ألغت لقب باشـا لأنه لقب موروث عن الأتراك ولم تلغ لقب وزير لأنه لقب موروث عن الانجليز..

وابتسم الأستـاذ شفيق عبدالغفور بينـه وبين نفسه كأنـه يهنىء نفسه على قـوة منطقه فى تحليل ما يحيط به.. والمهم أنـه لا يخاف هذا التلميذ ابن السيـد الوزير ولا يتعمد تجاهله والابتعـاد عنه.. إنما فقط يرفع نفسه فوق مستوى أبنـاء الوزراء رغم أن رئيس لجنة الامتحان نفســه لا يكف عن الاقتراب منـه والطـواف حـولـه كأنـه يتبرك بـه.. وضابـط البوليس المعين لحراسـة ابن الوزيـر والذى يقف عنـد باب لجنة الامتحـان يدخل كل بضـع دقائق ويطـوف هو الآخر حولـه وقد يقف ويتهـامس معـه وقد يعـود يحمل لـه زجاجـة بيبسى كـولا أو فنجان قهوة.. إن هـذا الحارس ليس له من مظاهر الوجـاهة كما كانت

الـدنيـا زمـان عندمـا كـان الحرس الـرسمي يصـحب أبنـاء الأمـراء والباشوات كأنهم أولياء العهـد.. ولكن الحالة السياسية دائما خطيرة إلى حد تفرض تعيين حـرس حول أبناء الشخصيات المهمـة، والثورة تراعي أن يكون هذا الحرس من البوليس السرى أو لعله يسمى اليوم البوليس الخاص حتى لا تجرح عيـون وشعور الشعب.. لا.. لا يمكن أن تعود مظـاهر الحياة ومظـاهر الحكام كما كـانت قبل الثورة.. كما كانت أيام صاحب الجلالة الملك..

وتنهد الأستاذ شفيق تنهيدة عميقة حزينـة كأنه يدارى بها جرحا قديما في صدره بدأ ينزف من جديـد.. لقد كان أيامها فى أوائل سنوات تخرجـه، وقد عين مـدرسـا فى مدرسـة خليل أغا الابتـدائيـة التابعـة للخاصة الملكية.. وكان بين تلاميذ المدرسة ابن ناظر الخاصة الملكية.. وكان ناظر الخاصة الملكية أيامها يوازى المندوب السامى البريطانى.. كل منهما يتحكم فى البلـد كما يريـد.. السفير يتحكم باسم بـريطانيـا وناظر الخاصة يتحكم باسم الملك.. بل كانوا يقولون أن سلطات ناظر الخاصة أوسع من سلطـات رئيس الوزراء.. ناظر الخاصـة سلطاته «من تحت لتحت» لأنها سلطات تنفيـذية، أما سلطات رئيس الـديوان فهى سلطـات مكشوفـة، لأنها سلطـات سياسيـة.. نـاظر الخاصـة يستطيع بالتليفون أن يستولى على ألف فدان ويضمها لأملاك العائلة المالكة ويطـرد منها خمسـة آلاف فلاح دون أن يـدرى أحد، ورئيس الديوان يستطيع بالتليفـون أيضا أن يطرد من الحكم وزارة حتى لو كان رئيسها سعد زغلـول أو مصطفى النحاس ولا يستطيع طبعا أن يخفى الخبر..

ناظر الخاصة هو الأخطر..

وكـان التلميذ فضل الله ابن نـاظـر الخاصة يأتى إلى المدرسـة كل صباح فى سيـارة فارهـة، ويجلس بجـانبه حـارس، ويقودهـا سائق

يجلس بجانبه حارس آخر.. وكان يباح له أن يدخل من الباب الرئيسى المطل على شارع فاروق — واسمه الآن شارع الجيش - بدل أن يدخل من الباب المطل على الحارة الجانبية المخصص لتلاميذ المدرسة.. وينزل حارس ويفتح له الباب والحارس الآخر يصحبه ويظل فى انتظاره إلى أن تنتهى مواعيد المدرسة..

وحضرة الناظر حريص فى كل يوم على الاطمئنان على فضل الله.. فإما أن يمر عليه فى الفصل، أو يدعوه إلى مكتبه.. كيف حالك اليوم يا فضل الله.. أريدك أن تشرفنى أمام الباشا الوالد بنجاحك.. ويتكلم حضرة الناظر وهو فخور بأنه ينادى ابن ناظر الخاصة باسمه «حاف» بلا لقب كأنه ابن أحد أفراد الشعب.. أما المدرسون فكانوا فيما بينهم يتجنبون الحديث عن التلميذ فضل الله، إلا إذا روى أحدهم نادرة تمجد فى عبقريته المبكرة التى بدأت تظهر وهو لا يزال فى المدرسة الابتدائية.. والطلبة منقسمون من حول زميلهم فضل الله، بعضهم يغار منه ومن العز الذى يعيش فيه، وبعضهم ينافقه، فالنفاق يمكن أن يبدأ من سن الصبا المبكر، وبعضهم يحس به كصديق يحبه فعلا.. ولم يكن فضل الله ثقيلا متمسكا بمظهره وحقوقه كابن ناظر الخاصة الملكية.. بالعكس.. كان يعيش حياة بقية التلاميذ وأغلبهم من أبناء حى سيدنا الحسين وحى الحسينية والعباسية وهى الأحياء التى تجمع بين المستويات الأدنى من الطبقة المتوسطة.. كان يقلدهم فى كل تصرفاتهم ويفرض نفسه عليهم فى كل ألعابهم ويتسلل معهم من سور المدرسة ليشترى مثلهم سندوتش الطعمية وأطباق البليلة، بل إنه وجد زملاءه يتضاحكون ويتشاتمون بلعن الأب.. «يلعن أبو اللى جاب أبوك».. فإذا دخل بينهم لا يتجرأ أحد على لعن أبيه رهبة وخوفا لا احتراما.. وإذا به فى إحدى المرات وهو بينهم يشاركهم ضحكاتهم يصيح بأعلى صوته.. «يلعن أبو اللى

جاب أبويـا».. وبهت أصدقاؤه لحظة ثم انطلقـوا يرددون وراءه لعن أبيه كأنهم يرددون هتافاً وطنيا.. «يلعن أبو اللى جاب أبوك.. يلعن أبو اللى جاب أبوك»..

وعـرفت هـذه الحكايـة فى المدرسـة. ان التـلاميذ يلعنـون حضرة الباشا ناظر الخاصة الملكية.. وتحرك حضرة الناظر بسرعة، ورغم أنه عرف أن فضل الله هـو الذى بدأ الهتاف الذى يلعن بـه أباه.. ورغم أن الموضـوع كله لم يتعـد الا بضعة طلبـة يتضاحكـون.. الا أن حضرة الناظر خاف من الحارس الذى يصـاحب فضل الله فأمر بضرب ثلاثة تلاميذ بالخرزانـة، وكان الضرب بالخرزانة أيامها عقابا عـاديا مباحا خصوصا فى مدرسة خليل أغا التى عـرف عنها القسوة إلى آخر مداها فى تربية تلاميذها..

وقـاطع التلاميـذ فضل الله بعد هـذه العلقـة التى نالها زمـلاؤهم الثـلاثة واكتفـوا بأن يعاملـوه على أنه نـاظر الخاصـة الملكية.. وهـو يحاول من جديد أن يكسبهم ويعيش حيـاتهم.. كان يحاول أن ينزل من طبقته إلى الطبقـة الشعبية، وربما كان أبوه مقتنعـا بأن ينشأ ابنه بين هذه الطبقـة فقد كـان أبناء الطبقـة العليا لا يـدخلون إلا المدارس الأجنبية.. الجيزويت والليسيـه فرنسيه وفيكتوريـا كوليدج.. و.. و.. وربما اختار الأب لابنـه مدرسـة خليل أغا لأنها تبعـه ومن أمـلاكه.. أملاك الخاصة الملكية..

والأستاذ شفيق يـذكر أنه كان يتعمد أن يعـامل التلميذ فضل الله كتلميذ عادى، ولكنه لم يستطع أن ينسـى أبـدا أن هذا التلميذ هو ابن ناظر، الخاصة الملكية.. وهو يكـره الملك ويكره الخاصة الملكية ويكره نـاظر الخاصـة الملكية.. انـه فى شبـابه ويعيش احسـاسه بـالسخط والرفـض والثورة على كل مـا هو قـائم فى مصر.. وكان يـرى السيارة الفـارهة فيكـاد يبصق عليهـا، ويلمح فضل الله فيدقق فى الحلـة التى

يرتديها والحذاء الذى فى قدميه.. كم تلميذا يستطيع أن تكون له هذه الحلة وهذا الحذاء.. وكم فلاحا دفع حياته ثمنا لهذه الحلة وهذا الحذاء.. ورغم ذلك فقد كان يكتم كل هذه المشاعر، وكل ما يفرج به عن نفسه هو أن يعامل فضل الله على أنه تلميذ عادى..

وفى إحدى الحصص بدأ فضل الله يتهامس مع جاره ويتضاحك معه ونهره الأستاذ شفيق:

— اسكت يا ولد..

وكان ينادى كل التلاميذ بلقب «ولد» ولكن اللقب كان له طعم خاص تحت لسانه وهو ينادى به فضل الله.. وبعد دقائق عاد فضل الله يتهامس ويتضاحك مع زميله، وعاد الأستاذ شفيق صارخا وهو يضرب على مكتبه بالخرزانة التى كان كل مدرس فى مدرسة خليل أغا يحمل مثلها أثناء الدراسة:

— قلت لك اسكت يا ولد وإلا عرفت كيف أعلمك السكوت..

ولم تمض دقائق أخرى حتى عاد فضل الله يتهامس ويتضاحك، كأنه يتحدى الأستاذ شفيق.. ناظر الخاصة الملكية يتحدى الأستاذ شفيق.. والأستاذ شفيق قبل التحدى.. وأمر التلميذ فضل الله.. قف.. تعال هنا.. ووضعه فى ركن حجرة الفصل الدراسى واقفا وذراعاه مرفوعتان إلى أعلى ووجهه ملتصق بالحائط ثم رفع الخرزانة الرفيعة وهو واقف خلفه وانهال بها ضربا على ساقيه العاريتين من تحت بنطلونه القصير.. وفضل الله يصرخ.. معلهش والنبى يا أفندى.. حرمت يا أفندى.. والتلاميذ فى الفصل كلهم سكوت.. ان ناظر الخاصة الملكية يضرب بالخرزانة.. لا فرق الآن بينه وبين المعلم عويضة الجزمجى والد التلميذ برهومة..

وتوقف الأستاذ شفيق ـ أفندى سابقا ـ عن ضرب فضل الله ولكنه ظل محتفظا به واقفا ووجهه إلى الحائط مرفوع الذراعين.. وعاد يلقى

الدرس على التلاميذ ثم بعد قليل عاد مرة ثانية وانهال ضربا بالخرزانة على ساقى فضل الله..

إلى أن انتهت الحصة وخرج الأستاذ شفيق وبدأ يحاسب نفسه.. هل كان قاسيا.. أبدا هذه هى وسيلة تربية التلاميذ فى مدرسة خليل أغا.. ولكن هل من حقه أن يطبق نفس الوسيلة على ابن ناظر الخاصة الملكية.. ماذا يمكن أن يحدث له.. هل يمكن أن يحدث له شىء..

ومر اليوم دون شىء.. وقدر الأستاذ شفيق أن فضل الله لم يلجأ إلى حضرة الناظر يشكو له..

وفى صباح اليوم التالى ماكاد يدخل المدرسة حتى وجد زملاءه يستقبلونه بنظرات صامتة حزينة كأنهم يعزونه فى وفاة أمه.. ماذا حدث.. وقبل أن يتكلم أحد وجد سكرتير المدرسة يدخل ويدعوه لمقابلة حضرة الناظر بسرعة. ودخل مكتب حضرة الناظر فوجد عنده اثنين يبدو عليهما أنهما من كبار القوم وصاح أحدهما بمجرد أن رآه:

— هذا هو شفيق زفت.. أين ولدت يا أفندى.. فى زريبة بهائم..

وبدأ التحقيق معه..

وأوقف عن التدريس..

وكان المنتظر أن يرفت ولكنهم اكتفوا بنقله إلى مدرسة اسنا الابتدائية فى أقصى الصعيد.. لقد كان حضرة ناظر الخاصة الملكية انسانا كريما رحيما فاكتفى بنقله إلى اسنا.. وتغنت نقابة المعلمين بإنسانية حضرة ناظر الخاصة الملكية..

وتعذب شفيق أفندى فى مدرسة اسنا ثلاث سنوات وكان كل ما يخفف عنه أن التلميذ فضل الله نفسه ترك مدرسة خليل أغا ووضعه أبوه فى مدرسة الجيزويت.. لقد انتصر شفيق أفندى بتطهير مدرسة أبناء الطبقة الشعبية من أبناء الطبقة الحاكمة..

●●●

ولم يرفع الأستاذ شفيق عينيه إلى مدحت عبدالرؤوف المرجوشي ابن سيادة الوزير كأنه يهرب من ذكرياته، وعاد يمر بين مقاعد الطلبة الممتحنين في الثانوية العامة بوجهه المتجهم ونظراته الحادة..

وفي آخر لجنة الامتحان.. بعيدا.. كانت صفوف الطالبات الممتحنات.. وقفزت ابتسامة إلى صدر الأستاذ شفيق.. أن هناك مراقبة لا مراقبا.. مدرسة من المدرسات وهو يعلم أن الطالبات يفضلن أن يقوم بمراقبتهن مراقب لا مراقبة. أستاذ لا أستاذة.. رجل لا امرأة.. ربما لأن النساء يفهمن بعضهن البعض أكثر مما يفهمن الرجال.. وربما لأن الطالبة لا تستطيع أن تغرى أستاذة مراقبة بنظرة أو ابتسامة أو بهمسة مما تستطيع أن تغرى به الأستاذ المراقب.. لو كان قد وضع مراقبا على صفوف البنات لكان قد تمتع بمحاولة إغرائه..

ومن بعيد أخذ يطوف بعينيه بين البنات يحاول أن يكتشف تفاصيل وجه كل منهن.. أنفها.. شفتاها.. عيناها.. صدرها.. شعرها.. انه إلى الآن وبعد أن وصل إلى الستين لا يزال يضعف أمام شعر البنت إذا كان جميلا خصوصا إذا كان طويلا وفاتح اللون.. كان شعر البنت له دائما تأثير على درجاتها في اللغة العربية..

ومرت بخيال الأستاذ شفيق ابتسامة ساخرة كأنه يداعب بها نفسه.. إن الناس تنسى أن مدرس البنات رجل قبل أن يكون مدرسا، وهو لا يستطيع أن يتخلى عن رجولته ويرتفع بنفسه وهو واقف أمام تلميذاته ليصبح ملاكا أو على الأقل قديسا.. أبدا.. كل ما يستطيعه هو أن يقاوم شهوة رجولته أثناء إلقاء الدرس.. ومهما قاوم فهو لا يستطيع أن يفلت من إحساسه بأنه واقف أمام بنات.. نساء.. خصوصا إذا كان مدرسا في مدرسة ثانوية أو في الجامعة وقد وصلت البنت إلى سن النضوج.. انه يحفظ شكل كل بنت قبل أن

يحفظ اسمهـا.. يحفظ استـدارة صدرهـا.. ولفـة سـاقيها.. وقمطـة خصرهـا.. ولـون عينيهـا.. ولقطـة شفتيهـا.. يحفظ ويقـاوم. وربما ضاعت البنت الجميلة ضحية هذه المقاومة.. ان المدرس قد يكره البنت الجميلة ويضطهدهـا لا لشيء إلا لأنها تكلفه أكثر فى مقـاومة نفسـه.. مقـاومـة تمتعـه بها.. مقـاومـة جمالها.. فى حين أنـه يستريح للبنت العادية التى لا تتميز بالجمال لأنها لا تتعبـه بمقاومة نفسه ومقاومة اشتهائه لها.. ثم يقال إن البنت القبيحة أسعد حظا من البنت الجميلة وأكثر ذكـاء بحيث تتفوق عليهـا دائما فى الامتحانـات.. أبدا.. لا الحظ ولا الذكاء انـه اختـلاف فى تأثير انعكـاس نسبة الجمال على نفسيـة الأستاذ..

وقـد كان الأستـاذ شفيق مـدرسا فى مـدرسة البنـات الثـانويـة.. ومفـروض أن مـدرس اللغـة العـربيـة لا يثير غـالبـا اهتمام البنـات ولا يبذلن مجهـودا كبيرا فى التقرب إليـه ومغازلتـه كالمجهـود الذى يبذلنـه مع مدرس اللغة الانجليـزية أو مـدرس الرياضـة أو العلوم.. ربما لأن علوم اللغـة العربيـة ثقيلة الـدم، أو ربما لأن فيها نـوعا من القداسـة لأنها لغة القرآن فيصبح مـدرس اللغة العربية أقـرب فى نظر البنات إلى رجـال الدين أو إلى المقـرئين الذيـن يرتلون القـرآن.. ولكن الأستاذ شفيق فى شبـابه كان شيئـا آخر.. كـان طويلا رشيقـا وكان يهتم بشاربه الصغير الرفيع الذى يعلقه فوق شفتيه على طراز كلارك جيبل.. وربما لم يكن مميـزا فى اختيار حلتـه وربـاط عنقه وقميصـه وحذائه كزميلـه مدرس اللغة الانجليزيـة، فلم يكن يهتم بهذه الأشياء أو على الأصح كـان بخيـلا على نفسـه يحسب دائما حسـاب القـرش الأبيض الذى ينفع فى اليوم الأسود..يوم المعاش.. حذاء واحد فى العام كله وبدلة كل عامين يضيفها إلى البدل الثلاث الأخرى التى مضى عـلى إحداهـا عشر سنوات ولا تـزال لائقة أنيقـة.. ثم إنه منـذ شبابـه جاد

ويتعمد الحرص على أن يبدو جادا أمام تلاميذه أو تلميذاته ولكنه كان لا يبخل بين الحين والآخر عن إطلاق ابتسامة من تحت شارب كلارك جيبل.. ابتسامة تطلق التنهدات من صدور البنات.. انه يعرف ويحس أن كثيرا من البنات معجبات به.. تتعلق عيونهن به طوال ساعة الدرس، بل كن أحيانا يتجمعن فى فناء المدرسة تحت نافذة غرفة استراحة المدرسين ويتطلعن إليه وهو جالس بجانب الشباك ثم يتهامسن ويتضاحكن فى خفر مفتعل..

انه سعيد بإعجاب الطالبات برجولته.. لا شك أن كلا منهن تتمناه.. إحساس يجعله ينتفخ بالغرور بين باقى المدرسين خصوصا مدرس اللغة الانجليزية.. إلى أن أصبحت منيرة تلميذته.. ومنذ أن التقى بوجهها وقوامها وهو يحس بأن هذا النوع من الجمال هو الذى يمكن أن يضعف أمامه.. وبدأ يقاوم.. يقاوم منيرة.. يقاوم اشتهاءه لها.. ومقاومته تدفعه إلى نوع من الغل يفرضه عليها.. أصبح كأنه يضطهدها ويقسو عليها.. قومى جاوبى على هذا السؤال.. بدل أن تضيعى عمرك فى المرآة افتحى الكتاب.. يا بنت انك لا تصلحين للمدرسة ابحثى لنفسك عن زوج وارحمى نفسك واريحينا.. كلام جاف قاس يصبه كل يوم على رأس منيرة.. والبنات يشمتن فيها شماتة تثيرها غيرتهن منها.. فهى أجملهن.. أو هكذا كان يراها الأستاذ شفيق.. وهى.. منيرة.. إنها صامتة دائما تسند رأسها على كفها وهى جالسة أمامه وكل عينيها متعلقتين به فى استسلام ورجاء كأنها عاشقة تستجدى الرجل الذى تحلم به.. ولم تكن تغضب من كلماته ولا ترد عليه، ولا تهتم بشماتة البنات فيها.. إنها دائما مستسلمة لعينيها المتعلقتين به..

ثم بدأت تتردد عليه فى غرفة المدرسين وهى تدعى أنها تسأله فى بعض فقرات الدرس.. وكانت تسأله وهو جالس وهى واقفة أمامه،

وتقترب منه حتى تكاد ساقاها تلتقيان بركبتيه.. ويحس بها.. يحس بها كلها.. يحس بها كامرأة.. ويحتار ماذا يفعل بهذا الاحساس.. ويقاوم.. وأحيانا يضعف عن المقاومة ويترك ساقيها تلتصقان به أكثر ويطلق لها ابتسامته من تحت شارب كلارك جيبل ويحادثها برفق وحنان خصوصا إذا كانت غرفة المدرسين خالية.. ولكنه لا يلبث أن يفيق من حيرته معها ويعود ويقاوم..

وقبل نهاية العام الدراسى بشهرين جاءت إليه وقالت أن أباها يريد مقابلته ليتفق معه على درس خصوصى.. انى فى حاجة إلى درس خصوصى يا أفندى.. وأجابها وهو محتفظ بوجهه الجاد.. كل بنات هذه المدرسة فى حاجة إلى دروس خصوصية.. إنهن متعبات..

وقد فرح الأستاذ شفيق بهذا الدرس الخصوصى أكثر من أى درس خصوصى اتفق عليه.. وكان دائما يشترط أن يأتى التلاميذ إليه فى البيت، ولكنه مع منيرة قرر أن يذهب إليها فى بيتها.. إنه درس خصوصى جدا والأفضل أن يكون بعيدا عن بيته بعيدا عن زوجته.. ومنيرة تسكن فى الزمالك وهو يسكن فى مصر الجديدة.. لا يهم.. وقد كان يشترط إذا اتفق على أن يكون الدرس الخصوصى فى بيت الطالب أن ترسل إليه سيارة لتنقله.. ولكنه لم يشترط شيئا مع منيرة ولا على والدها الرجل الغنى.. إنه مستسلم لإحساسه بأن هذا درس خصوصى جدا..

وكانت أمها تجلس معهما أثناء الدرس الخصوصى، ثم اطمأنت وبدأت تغيب عنهما.. وبدأت ساقاه تعيشان بين ساقيها طوال الدرس.. ويده تضغط على يدها.. ثم حدثت قبلات سريعة خاطفة.. والدرس مدته ساعة فأصبحت ساعة ونصفا وساعتين.. وأصبح الأستاذ شفيق مجرد شفيق.. ألا نتقابل فى الخارج يا منيرة.. لا أستطيع يا شفيق إلا بعد الامتحان.. بابا لا يسمح لى بالخروج إلا بعد الامتحان..

ونجحت منيرة بتفوق فى امتحـان اللغة العربيـة وكان شفيق حـريصا على أن تنجح أيضـا فى بقيـة العلـوم فكـان يـوصى عليهـا زمـلاءه المدرسين حتى بدأوا يشكـون فى علاقتـه بها.. ولكنه ينفى كل شىء.. إنها إشـاعات وهى مجرد تلميـذة من تلميـذاته يهتم بها أكثـر بحكم تقاليد الدرس الخصوصى..

ثم بدأت تضيع منه بعـد أن نجحت.. إنه لا يستطيع إلا أن يحادثها فى التليفـون وترفض أن تقـابلـه خارج البيت.. لا أستطيع يـا شفيق أفندى.. أنت متـزوج.. ماذا يقول الناس.. منـذ متى تهتم منيرة بكلام النـاس بعد أن جعلت سيرتها تتردد فى كـل المدرسة.. ثم إنها أعـادت إليـه لقب أفندى.. كأنها تعيـد إليـه كل ما يخصــه.. ولكن مستحيل.. لا يمكن أن يكون كل هـذا الحب مجرد رشوة كـانت تدفعهـا له.. إنها تحبــه وهــى على حق إذا هى تحاول الهرب منـه لأنــه متـزوج.. لماذا لا يتزوجهـا.. ليعترف أنه يحبهـا والطريق الـوحيد إليهـا هو طـريق الـزواج، وهـو لن يستطيع أن يسعــد زوجتـه التى معـه وهـو يحب غيرها.. يحب منيرة..

ومنيرة سافـرت مع العائلة لقضـاء الصيف فى الاسكندريـة.. إنه يعرف عنوانها هنـاك.. شاطىء ميامى.. سيذهب إليهـا ويخطبها من أبيهـا.. واشترى بدلـة صيفيـة جديـدة تعمـد أن تكون على مستـوى العـريس الجديد.. واشترى أيضـا «مايـوه» وزيا كـاملا للشـاطىء.. وحجـز غرفـة فى فنـدق سـان استيفانـو.. ودفع كثيرا.. لا يهم.. إنها منيرة.

وارتدى البـدلة الجديدة وذهب إلى شاطىء ميـامى.. ورآها قبل أن يبحث عنها.. إنها تجرى بـالمايوه.. كل قوامها عار.. لقـد تحسس هذا القوام أثناء الـدروس الخصوصية ولكنه لم يره قبل اليـوم عاريا بكل هـذا الجمال.. وصادفتـه وهى تجرى.. أهلا شفيق أفنـدى.. بابـا فى الكابين.. تفضل واذهب إليــه.. سيفرح بك.. ثم تركتـه تجرى.. ورآها

تتعلق بشاب يمد ذراعه ويحيط بخصرها ثم يشدها معه إلى البحر..

مستحيل. لا يمكن انه مجنون ويجب أن ينقذ نفسه من جنونه قبل أن يضيع.. وأحنى الأستاذ شفيق رأسه كأنه انهار مع يأسه ولم يذهب إلى والد منيرة ولكنه ذهب وحمل حقيبته وعاد إلى القاهرة.. عاد إلى بيته..

●●●

وشد الأستاذ شفق ناظريه بعيدا عن وصف الطالبات ا لمتحنات وفى صدره آهة مكتومة تحسرا على قصته مع منيرة.. إنها قصة مضى عليها الآن أكثر من عشرين سنة وكان الدرس الخصوصى الذى أعطاه لمنيرة هو الدرس الوحيد فى حياته الذى دفع فيه أكثر مما أخذ منه.. ولكن الله عوضه.. كان أيامها يتقاضى عن الدرس جنيها واحدا فى الساعة.. الآن لا يتقاضى أقل من أربعة جنيهات.. وهو يجمع أكثر من طالب فى الدرس الواحد وقد يصلون إلى عشرة طلاب أى أنه يتقاضى أربعين جنيها فى الساعة الواحدة.. ورغم هذا فهو ليس أغلى المدرسين.. مدرس اللغة العربية دائما فى المؤخرة.. إن مدرس الرياضة البحتة يتقاضى ستة جنيهات فى الساعة الواحدة.. وإذا كان يدرس الرياضة باللغة الانجليزية وصل إلى عشرة جنيهات وهو يجمع الطلبة فى درس واحد.. عشرة طلاب وأحيانا عشرون.. أى يتقاضى فى الساعة مائة وأحيانا مائتى جنيه.. كأنه مدرسة خاصة.. كأن الدولة عندما أممت التعليم وجعلته مجانيا جعلت كل مدرس يجعل من نفسه مدرسة خاصة.. إن الأهالى الآن يدفعون فى تعليم أولادهم أكثر مما كانوا يدفعون عندما لم يكن التعليم مجانيا.. الدولة خربت بين الأهالى وتسببت فى رفع سعر المدرس حتى أصبح أعلى من سعر الطبيب.. حتى هو اضطر إلى أن يتفق مع مدرس رياضة ليعطى ابنه دروسا خصوصية.. اضطر أن يخرب بيته كما يخرب بيوت الآخرين..

ولكن..

ما هذا..

إن التلميذ مدحت عبدالرؤوف المرجوشى ابن السيد الوزير يغش.. وخطا خطوة نحو التلميذ الغشاش ثم توقف.. لعله استعاد فى ذاكرته ما جرى له أيام ابن ناظر الخاصة الملكية وهذا ابن وزير.. لماذا لا يتركه يغش ويريح نفسه. ثم إن رئيس المشرفين يطوف حوله ويعلم أنه يغش ورغم ذلك لم يوقفه عن الغش.. ثم ما هو الغش.. إنها عملية تدريب على تنمية الذكاء.. أى أنها يمكن أن تعتبر عنصرا من عناصر التربية.. بل إننا أصبحنا نعيش فى مجتمع قائم على الغش.. الغش فى التصريحات.. والغش فى الاجراءات.. غش سياسى واقتصادى وثقافى. ولماذا لم يكن هناك غش فى الامتحانات.. لقد ارتفع الغش حتى وصل إلى مستوى شهادة الدكتوراه.. كل الشخصيات الكبيرة التى حملت لقب «دكتور بعد الثورة حملته بالغش.. دفعت ثمن لقب دكتور كما كانوا يدفعون ثمن لقب باشا وبك.. فلماذا لا يترك ابن الوزير يغش إذا كان الوزير نفسه يغش.. الوزير يحمل شهادة دكتوراه مزيفة فلماذا لا يحمل ابنه شهادة ثانوية عامة مزيفة أيضا..

ولكنه لم يستطع أن يستسلم لهذا المنطق.. وإذا كان لم يخف وهو شاب من ابن الباشا فلماذا يخاف اليوم من ابن الوزير.. ثم ممن يخاف.. انه سيحال إلى المعاش بعد شهرين ولن يخسر شيئا أكثر من الإحالة إلى المعاش.. بعد شهرين سيصل إلى سن الانتحار.. ومن الأكرم له أن ينتحر وهو راض عن نفسه وبعد أن يرضى الله ويكرم نفسه فى آخر أيامه بموقف مشرف ينتصر به للحق ولمبادىء التعليم النظيف.. لا تخف يا أستاذ شفيق.. إنك لن تخسر شيئا بعد أن كتب عليك المعاش.. كتب عليك الانتحار بأمر الدولة..

وخطا خطوة أخرى نحو ابن الوزير ووقف فوق رأسه..

وبسرعة أخفى التلميذ مدحت عبدالرؤوف المرجوشى الورقة التى

كـان يغش منهـا تحت ورقة الأسئلـة والأجـوبـة.. لم يتخذ الأستـاذ شفيق أى اجـراء ولكنـه ظل واقفـا فـوق رأس مـدحت وهـو يبتسم ابتسامة ساخرة.. انه تلميذ عبيط يغش بـالطريقة القديمة الساذجة.. ورقة يضعها أمامه وينقل منهـا.. إن أساليب الغش تطورت مع تطور الحضارة هناك أساليب مودرن.. آخر صيحة.. بل إن هذا العبيط كان يستطيع أن يستغل نفوذ والده ويطلب من أحـد الأساتذة المدرسين أن يعد لـه ورقة إجابـات كاملة تبـدل بالورقـة التى يقدمها عنـد انتهاء الامتحان ويستطيع بـذلك أن يتأكد من نجـاحه فى الامتحـان.. بل إنه يستطيع بذلك أن يكـون الأول على كل زملائه الطلبـة.. أول الثانـوية العامـة.. ولكنه عبيط أو لعل والده لم يجد الأستاذ الـذى يضمن لابنه النجاح بأسلوب الغش الحديث..

والتلميـذ مدحت تـوقف عن الكتـابـة.. ويرفـع عينيه إلى الأستـاذ شفيق ثم يزفـر فى سخط وقرف.. ثم يبحث بعينيـه عن رئيس اللجنة كأنه يستغيث به..

واقترب رئيس اللجنـة بسرعـة من الأستاذ شفيق وهـو يبتسم لـه وشـده من ذراعه يبعـده عن التلميذ مـدحت وهو يهمس لـه بكلمات لا معنى ولا قيمة لها.. انه فقط يبعده عن مدحت..

واستسلم شفيق لـرئيس اللجنـة وابتعـد معـه دون أن يبلغـه عن حـادث الغش.. وبعد دقـائق أخـرى استطاع شفيق أن يغـافل رئيس اللجنة ثم يتسلل ثانية إلى حيث يجلس مدحت..

ولم يلحظ مـدحت.. وكـانت ورقـة الغش مفـرودة أمامـه.. فمـد الأستـاذ شفيق يده وسقط بها على الـورقـة.. ما هـذا يا أفنـدى.. إنك تغش.. ضبطتك متلبسا بالغش..

وفوجىء الأستـاذ شفيق بالتلميـذ مدحت يصرخ بأعلى صـوته.. مالك ومـالى يا أستاذ.. لماذا تضطهدنى منذ أول الامتحـان.. ابعد عنى قبل أن أرميك فى داهية..

وجرى رئيس اللجنة إليه ودخل رجال الحرس كـالزوبعة وأحاطوا بالأستاذ شفيق وهو يصرخ.. إنــه يغش.. ضبطته متلبساً.. وهذه هى الورقة التى كان يغش منها..

ويصرخ مدحت.. أنــا لا أغش.. هذه الورقة أخرجهـا من جيبه الآن ويريـد أن يتهمنى بها.. انه مسلط على.. انى أعـرف هذا الأستــاذ.. انه شيوعى..

وثار الطلبة الممتحنون كلهم وأخذوا يصرخون هم أيضا وبعضـهم ألقى بأوراق الأجـوبة والأسئلـة فى الهواء.. وبعضـهم انتهز الفـرصة وأخرج أوراق «البرشـام» وأخذ ينقل منها إلى أوراق الإجابة..

وترك كل المشرفين على الامتحــان مراكـزهم والتفوا حـول الأستاذ شفيق..

وضجيج وكلام كثير..

ثم صحبوا الأستاذ شفيق إلى خارج اللجنة..

وعاد الهدوء.. وعاد ابن السيد الوزيـر يجلس مكانه ورئيس اللجنة يعتـذر له ويطيب خـاطره ثم دس فى يـده الورقـة التى كان الأستــاذ شفيق قد ضبطها..

ولم يستدع شفيق للتحقيق ولكن اكتفى بإلغاء انتـدابه كمراقب فى لجنة الامتحان..

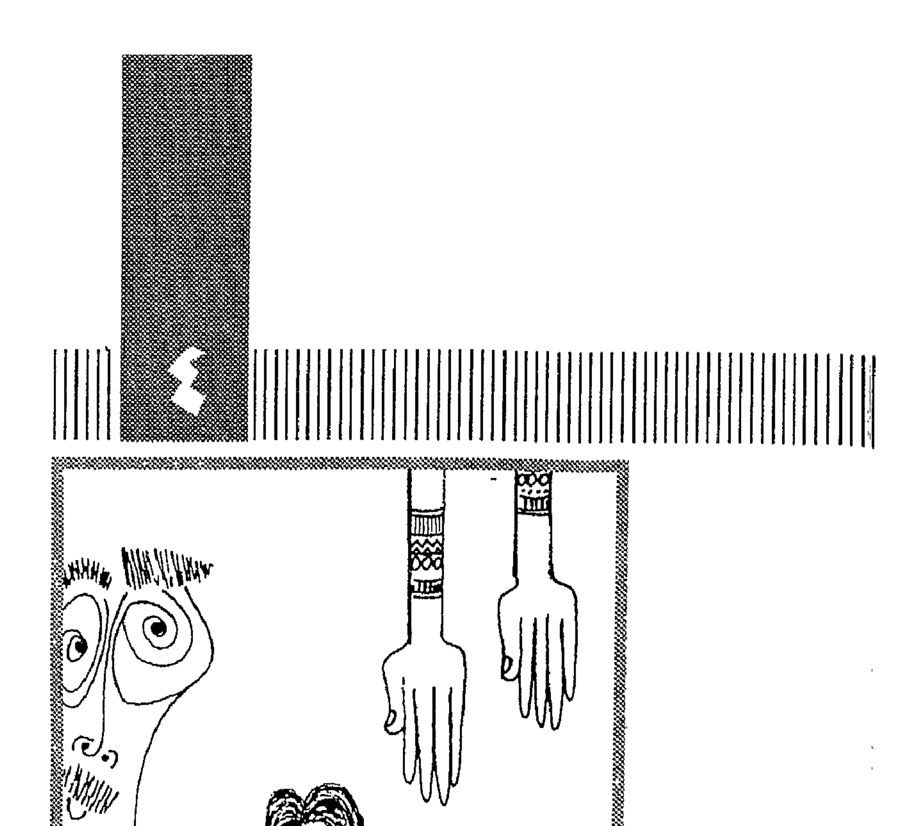
ونشر الخبر فى اليوم التالى على أن طلبة الثانويــة العامة قد احتجوا معترضين على صعوبة الأسئلة..

●●●

الأستاذ شفيق جـالس فى مقهى عكاشة وهو هــادىء سعيد.. لقد وصل إلى سن الانتحار وهــو بطل من الأبطال الـذين تروى قصصـهم على أنها إشاعات..

تمـــت

٤



آسف..

لم أعد أستطيع

● كلمـــــة :

صدقونى .. هذه حكايــة أخرى سمعتها وأنا أطوف العالم .. حكاية واقعية حدثت منذ سنوات طويلة .. وأنا أسمع من ناس مسئولين يكشفون أسراراً تصلح للنشر كأخبار .. ولكنى كعادتى أعيــش الواقع بخيالى وأصنع من الخبر قصــة وربما كـــانت واقعيــة هـــذه القصــة وصدقها رغم كل ما أضفتــه عليها من خيالى هو ما يبرر جرأتى على نشرها رغم كل ما فيها ...

كـان عصـام رفعت ضـابطـا فى الحرس الجمهـورى .. والحرس الجمهورى لم يعـد منذ زمان طـويل مجرد مظهر تشريفـات كما كان أيام الحرس الملكى .. إنه قوة كاملـة من قوات الجيش وقد اشترك فعلا فى أكثر من عمليـة من العمليات العسكرية .. ولكن عصـام رفعت كان دائما يختار ضمن قـوة التشريفات التى يستكمل بها المظهـر الرسمى وتصاحب رؤساء الدول الـذين يزورون مصر ربما لأن مظهر عصام نفسـه كان مظهـرا مشرفا كضـابط من ضبـاط الحرس .. إنه طـويل القـامة منسق العضـلات والخطوط كـأنه صـورة مصغرة من قـوام رمسيس الثـانى الـذى يقف فى محطـة مصر، وكـان لـه وجـه فـاتح السمرة وسيما دون أن تفقـده وسامته جـديته ، فهـو جاد دائما تطل نظراتـه الهادئة من فوق شـاربه الرفيع فى هـدوء يدعـو إلى احترامه.. احترام الاعجاب به..

وكـان عصام يعلم كل هـذا عن نفسه ويعتـز به ولكنـه لا يحاول استغلاله.. استغلال وسامته.. وليس فى حيـاته مغامرات نسائية، ولم يحس يوما أنه فى حالة حب ربما لأنـه كان مكتفيا بحب نفسه ومكتفيا بالاعجاب بقوامـه ووسامته.. وقد كان يتهم أحيانـا بالغرور، وهو لم يكن أبـدا مغـرورا، إنما انعزالـه داخل نفسـه وقـدراته على الاكتفـاء

بنفسه جعلته أقرب إلى الانسان الخجول لا يستطيع أن يطلب لنفسه وأن كان يتمنى أن يطلب منه، ولايستطيع لخجله وانعزاله أن يخطو الخطوة الأولى وأن كان يتمنى أن يتحمل مسئولية باقى الخطوات..

وهو من عائلة متواضعة لا يملك شيئا فوق مرتبه الذى ينفق معظمه على تكاليف الاحتفاظ بمظهره ويعيش بالباقى بين أخوته فى بيت أبيه.. وقد اتاح له مركزه كضابط فى الحرس أن يقف متفرجا على أرقى الطبقات وأعلى مظاهر الفن التى يمكن أن تعيش فى مصر أو تمر بمصر.. إنه يقف متفرجا على مجتمع الملوك والرؤساء الذين يدعون إلى زيارة مصر والحاشية العريضة التى تصحب كلا منهم وتضم نساء ورجالا، ويعيش معهم فى قصور الضيافة.. ويتفرج أيضا على الشخصيات المصرية التى كان مقدرا أن يعيش وهو يسمع عنها من بعيد لولا مركزه كضابط فى الحرس.. يتفرج عليهم فى الحفلات الرسمية التى تقام تكريما للضيف أو فى المناسبات الرسمية التى يكلف خلالها بالحراسة.. ولم يكن يكشف عن نفسه أبدا وهو يتفرج.. أن نظراته دائما هادئة متحفظة حادة لا يتركها أبدا تلتقى بأى عينين غريبتين خصوصا عيون النساء.. انه حريص على مظهره العسكرى الرسمى وحريص على احترام مسئوليته كضابط من ضباط الحرس.. ولكنه كان يستطيع أن يتفرج فى لمحات سريعة، وعود نفسه على أن يستوعب فى كل لمحة ما كان يتطلب أن يستوعبه فى نظرة طويلة كاملة.. انه فى لمحة يستطيع أن يستوعب كل ملامح هذه المرأة وكل خطوط جسدها ويحكم على نسبة جمالها.. وفى لمحة واحدة يستطيع أن يستوعب كل قطع المصاغ التى تتحلى بها.. وكان أحيانا يحس كأنه يكتم فى داخل صدره تنهيدة عندما يفاجأ بكمية من قطع المصاغ لم يكن يتصورها معلقة فوق امرأة واحدة.. شيء يثير آماله ويثير حسرته ويكاد يخرجه عن تحفظه ليسعى وراء هذا المصاغ فوق جسد هذه المرأة..

وأحيانا كان يلتقى فى لمحاته بابتسامة موجهة إليه من بعيد.. ابتسامة امرأة.. ابتسامة اعجاب ونداء .. وكان يتجاهلها بسرعة .. ابتسامة لا تكفى لتخرجه من عسكريته واحترامه لمسئوليته وتدفعه ليجازف بتقدير رؤسائه له .. كل ما كان يحرص عليه ويرضى به غروره هو أن يعرف من تكون صاحبة تلك الابتسامة .. إنها زوجة سفير رئيس الدولة المدعوة أو فلان الفلانى الشخصية المعروفة .. أو كلهم من نساء هذه الطبقة التى تقام لها الحفلات الرسمية والتى تكفى ابتسامة من أى منهن لترضى غرور أى رجل ..

وقد حدث أن أخذ أكثر من ابتسامة .. اتصلت به احداهن بعد يومين من حفل كان يقوم فيه بمسئوليته كضابط من ضباط الحرس.. اتصلت به من خلال تليفون البيت .. وكان يمكن كما هى العادة أن تمر أيام طويلة وهى تحرضه على نفسها بأحاديث التليفون، ولكنها وجدته صنفا آخر من الرجال .. إنه يضيق بمحادثات التليفون وبعد محادثتين اعتذر لها وأنهى المحادثة ، ولكنها عاجلته بمحادثة ثالثة وصارحته بمن هى وحرضته على طلب لقائها .. إنها زوجة شخصية عربية لها قيمتها .. وفكر بسرعة .. لقد مر بها فى لمحة من لمحاته وكانت تبتسم له .. إنها جميلة ولكنها ليست فى أعلى مستويات الجمال .. وقطع المصاغ التى كانت تحملها لا تعتبر شيئا بالنسبة للقطع المعلقة على كثير من الأجساد .. ليس فيها ما يكفى ليعرض نفسه وسمعته لمغامرة قد تنتهى بفضيحة .. ان ما تريد أن تأخذه منه أكثر مما يمكن أن يعطيه له .. إنه مغرور .. لا .. إنه عاقل .. عقله كمبيوتر حساس ..

وتجاهل تحريضها وهرب من تليفونها وان كان قد وجدها أمامه عندما زار صديقه محمود بعد بضعة أيام بناء على دعوة شخصية .. إن زوجة صديقه هى التى أعدت هذا اللقاء .. إنها هى أيضا تشترك فى

إغـرائه بها .. لا .. لن يضيع نفسـه فى متع ككأس الدنـدورمـة تنتهى بمجـرد أن تلعقها .. واستطـاع أن يهرب وتـركهم يقـولـون عنه انـه مغرور ودمه ثقيل ولا يستحق النعمة ..

هكذا كان ..

إلى أن جاء نائب رئيس جمهورية فى زيارة رسمية لمصر وكانت معه ابنته ..

وكان عصام هو قائد الحرس المرافق ..

وفى إحدى لحـاته وجد عينيها معلقتين بـه .. ثم اكتشف ان عينيها تبحثـان عنه .. تبحثـان عنـه دائما ، حتى انها كانـت واقفة بجـانب والدها تستقبل المدعوين وتصافحهم واحـدا بعد واحد وبعد كل واحد تدير رأسها وتطلق عينيها بعيدا تبحث عنه ..

وبدأ يخرج عن القاعدة التى فرضها على نفسه وهى ألا يترك عينيه تلتقيان بعينى الطـرف الآخر .. وضع عينيـه تحت أمر عينيهـا فى دنيا تبادل النظرات .. وعنـدما التقى مع نظرتها بابتسامـة تردد قليلا قبل أن يبادلها الابتسامة .. ولكنه لا يستطيع أن يقـاوم طويلا فيجد نفسه يتعلق بنظرة سريعـة وابتسامة خفيفـة كأنه يتبادل معهـا منشورات سرية .. ويستوعبها أكثر ..

إنها ليست صغيرة .. ربما تعدت الخامسة والثـلاثين ولكنها حتى يطبق بروتوكـول المجاملات الرسميـة اقنع نفسه انها لا تزال فى أول الثلاثين .. وهى ليست جميلة ان قوامهـا قصير هذا القصر الذى عرف عن هـذه الشعوب .. ولكن هـذا القصر لم يؤثـر فى خطوط جسـدها .. نهديها .. خصرها .. لفـة ساقيها وانسياب ذراعيهـا .. ووجهها يحمل هـاتين العينين الضيقتين كأنهما من قلم رفيع ، وأنفهـا صغير كحبـة النبقـة وشفتيها ضـائعتان فى لـونها الذى يميل إلى الصفـار المختلط بـالسمار .. و .. ولكنْ لماذا يبحث وراء كـل هــذه التفـاصيل .. ان

بـروتـوكـول المجـالات الـرسـميـة يجد لها دائما صفـة الكمال .. إن شخصيتها تـوفر لها الكمال .. شـخصيـة حلوة مثيرة فليكتف بـإقناع نفســه انها شـخصيـة حلوة مثيرة وأحلى مـا فى هـذه الشـخصيـة انها شخصية ابنة نائب رئيس جمهورية ..

وقد مر يـومان على بدء الزيارة .. وكـان فى انتظارهما هى وأبيها فى بهو قصر الضيافة وهما فى طريقهما إلى السيارة الرسمية الكبيرة التى تتقدمها فرقة من الموتـوسيكلات .. ونزلا من جناحهما إلى البهو ورفع يده بالتحيـة العسكرية ومر بـه الأب وهو يرد تحيته بهزة عـابرة من اصابعـه ، أما هى فقد وقفت أمـامه ومدت يدهـا تصافحه وشفتـاها الضائعتان تبتسمان ابتسامة واسعـة ، وقالت بإنجليزية تتكسر فوق رنين لهجتها الأصلية :

ـ صباح الخير .. إننا لم نعرف اسمك حتى الآن

إنه يعرف اسمها دون أن يسألها عنه .. اسمها «ميتا» ..

وقـال ويدهـا لا تزال فى يـده وابتسامـة خفيفة تـرتسم من تحت شاربه الرفيع :

ـ عصام .. عصام رفعت يا صاحبة الفخامة ..

ورددت اسمه بلهجتها المتكسرة وهى تضحك ضحكة عالية قائلة :

ـ سأراك .. دعنا نراك ..

وأحس عصـام بالحرج أمـام ضحكتها العـالية .. لابـد أن كل من حـولـه بـدأوا يتغـامــزون ويتهـامسـون .. إن هـذه المرأة لا تحترم البروتوكول .. واعتـدل فى وقفته العسكرية ثم تقدمها ليلحق بـوالدها دون أن يرد عليها ..

وفى المسـاء عاد بهما إلى قصر الضيـافـة .. وأسرع والدهـا الخطى داخل البهو ووجد نفسه معها وحـده .. غريب هذا الأب .. إنه لا يحس بوجـود ابنته معه أبـدا .. بل أنه لاحظ انهما لا يتبـادلان الكلام .. لماذا

اتى بها معـه .. ربما لم يـأت بها إنما وجـدهـا معــه .. كأن زوجتـه وضعتها فى حقيبته دون أن يدرى ..

وقالت له «ميتا» فى صوت رزين كأنها تلقى أمرا رسميا :

ـ إنتظر انى أريدك ..

ووقف صـامتا .. وصافحـت ميتا السيدة المرافقـة كأنها تأمـرها بالانصراف ، ثم تقدمت إلى الصالون الداخلى من البهو وعصام يتركها تسبقه بخطـوة .. ثم انزوت فى ركن وتركته حتى اقترب منهـا فاقتربت هى أكثـر حتى التصقت به ، وقـالت وعينـاها الضيقتـان قد اتسعتـا لتنطلق منهما لمعة كأنها شرارة رغبة :

ـ ألا نستطيع أن نبقى وحدنا ..

وقال وهو يبتعد عن التصاقها به :

ـ نحن وحدنا ..

قالت كأنها تريده أن يفهم :

ـ هـذا ما أريده .. أن نكـون وحدنا والليل طـويل .. وأنا ضقت من هذه الاستقبالات والرسميات .. وأريد أن أرتاح معك ..

وفكر بسرعة .. إنه يفهم ما تريد .. وهو فى هذه المرة لا يمانع .. إنها ابنة نائب رئيس جمهورية .. إنه شرف كبير له .. ولكنه إذا جلس معها فيجب أن يقـدم تقريـرا غـدا عن كل مـا جرى بينهما .. وإذا لم يقـدم التقرير فـان المخابرات ستكون قـد عرفت كل شىء بلا تقـرير منه .. ولا أحد يـدرى ما يحدث له بعد ذلك .. على الأقل سيفقـد هذا الاحترام الـذى اكتسبه طـوال هـذه السنـوات كضابط فى الحرس الجمهـورى حريص على احترام نفسه واحترام عسكريته واحترام مسئولياته ..

وقال فى لهجة جادة وقد اكتسب وجهه كل ما تعوده من جدية :

ـ آسف .. لا أستطيع ..

وقالت فى غيظ وهى تخبط على الأرض بقدمها :

ـ لماذا ؟

وقال فى هدوء :

ـ إنى معك بصفة رسمية ..

وقالت بسرعة :

ـ إذن لتكون لى بصفة رسمية ..

وقال فى دهشة :

ـ كيف ..

قالت :

ـ نتزوج ..

وفتح عينيه كأنه صعق .. هل هذا ممكن .. أن يتزوج ابنة نائب رئيس جمهورية دولة لها كيانها ولها اسمها .. ويتزوجها هكذا فى لقاء لم يدم أكثر من يومين .. وقال وهو ساهم كأنه يحادث نفسه :

ـ هل هذا ممكن ؟

وسمعها تقول :

ـ طبعا .. إنى حرة .. هات الأوراق الآن لنوقعها ودعنا ننم ..

وقال بسرعة

ـ لا .. إن زيارتك تنتهى بعد يومين وأنا لا أستطيع أن أسافر معك..

قالت وهى تعود وتلتصق به :

ـ سأبقى معك هنا كما تريدنى أن أبقى .. لنتزوج الليلة ..

وقال وهو يتركها تلتصق به أكثر :

ـ مستحيل .. يجب أن أستأذن أولا .. اجراءات كثيرة ..

قالت وهى تشب على قدميها وتلصق شفتيها بشفتيه :

لا تتركنى ..

قال وهو يتلفت حواليه حتى يطمئن إلى أنهما وحدهما .. ثم يرفع

جسـدهـا الصغير القصير من على الأرض بـذراعيـه ويترك شفتيـه لشفتيها كأنه يتركها تذوق قبل أن تشترى :

ـ لن أتركك .. انتظرى الغد ..

وتركها وخرج من قصر الضيافة وكأنه يجرى إلى حياة جديدة ..

●●●

وفى صباح اليوم التالى أبلغ رؤساءه بكل ما حدث ..

لقد عرضت عليه الزواج ..

وهو يريد أن يتزوجها ..

وامتـلأت مكاتـب المسئولين بـالـدهشـة وجرت تحليـلات كثيرة تتخللهـا ضحكـات كأن ما حـدث هـو نكتـة .. والتفوا حـول عصـام بعضهم يحسـده فى غيظ وبعضهم يحسده فى فخـر معتزا بأن شـابا مصريا استطاع فى لحظـات أن يأسر ابنة نائب رئيس جمهوريـة لدولة لها قيمتها ..

وصدرت مـوافقة رسميـة على الزواج استثنـاء من القانـون الذى يحرم على رجـال الجيش أن يتـزوجـوا من أجنبيات ، وان كـانـوا قـد اشترطوا ألا يتم الزواج إلا بعد انتهـاء الزيارة حتى لا يختل البروجرام الرسمى ..

وأعفى عصام من مهمـة حراسـة نائب رئيس الجمهوريـة ليتفرغ لعلاقته الجديدة به كخطيب لابنته .. وذهب إليها فى صباح اليوم التالى وفرحت ميتا ..

وهى تـريد أن تفترض أن الـزواج قد تم فعـلا وليعاشرهـا اليوم .. الآن .. وهـو فخور بمـدى هـذا الحب الـذى تصبه عليـه ويحاول أن يهدئها بقبـلاته .. لم يبق إلا يوم واحـد وتنتهى الزيارة ويبـدأ الحياة الجديـدة ، ثم انـه لم يطلبهـا بعـد من أبيهـا .. يجب أن يحصل على موافقته رسميا ..

وقالت ميتا فى دهشة :

ــ لماذا .. يكفى انى وافقت .. لماذا تحشر الرسميات فى شىء يتم بينى وبينك .. شىء خاص وعصام يصر ..

وفوجىء وهو يعرض الموضوع على أبيها .. إنه يبدو وكأنه لم يفاجأ بشىء جديد .. وكأن الموضوع كله لا يهمه .. وقال فى برود :

ـ وماذا تريد منى ..

وقال عصام وهو يبتسم فى أدب واحترام كبير :

ـ أريد موافقة فخامتك ..

وقال الأب فى برود :

ـ وماذا تفعل بموافقتى .. ألم توافق هى ..

وقال عصام فى دهشة :

ـ فخامتك هو الأب وأنت صاحب الكلمة والحق ..

وقال الأب فى قرف وكأنه يبصق كلماته :

ــ هذا موضوع لا أستطيع أن أوافق عليه ولا أن أرفضه .. إنه موضوع لا يخصنى ..

وألجمت الدهشة لسان عصام ولم ينطق بكلمة ولم يقدم تقريرا عن لقائه بالأب ..

وفى اليوم التالى انتهت الزيارة الرسمية ، وسافر الأب وبقيت بعده ميتا وانتقلت من قصر الضيافة إلى فندق هيلتون ، ولم يستطع عصام ليلتها أن يصدها رغم ان الزواج لم يكن قد تم .. إنه أيضا يريدها .. ولكنه ليلتها عاش متعته بها فى دهشة المفاجأة .. إنه يفاجأ بشىء غريب .. كل هذا لا يمكن أن يكون طبيعيا .. إنها تريده أكثر بكثير مما تريد أى امرأة رجلا ..

وابتسم ..

إنه سخاء الحب ..

لا يمكن انها كانت تـريد من زوجها الأول الذى طلقتـه منذ شهور كل هذا الذى تريده منه ..

وفى اليوم التالى تم الزواج وأصر عصام على أن يكون زواجا شرعيا إسلاميـا .. يجب أن يفرض شخصيته وميتـا توافق بـلا نقاش أو على الأصح بلا اهتمام .. وكل شىء يتم فى هدوء وبلا حفل .. بل لم يحضر الـزواج أحـد من مـوظفى السفـارة التى تتبعهـا ابنـة نـائب رئيس الجمهورية .. فقط عائلة عصام واثنان من أصدقائه ..

ولم يعلن عن هذا الـزواج فى الصحف .. فقد كـان أسلوب الحكم فى مصر أيامها يحرم إعلان أو ابراز التصرفـات الخاصة حتى ولو كانت زواج مصرى بابنة نائب رئيس دولة أجنبية ، خصوصا ان هذا الزواج لا تهتم به الدولة وليست هناك علاقة مهمة تربط الدولتين ..

وبعد أيـام استأجر العـروسان شقـة مفروشـة فى عمارة ليبون .. «ميتا» هـى التى تـدفع قيمة الايجار .. وتـدفع دائما .. إن المال يصلها من بلدها على قدر ما تطلب .. عملـة أجنبية .. وينبهر عصام وهو يرى بين يديها آلاف الدولارات ..

ولكن ..

الأيام والشهـور تمر وعصام يـزداد ضيقا ويحس كـأن فى داخله بركانا يزمجر ويكـاد ينطلق .. إنه يحس كأنه أصبح سجينا .. سجين غرفة النوم .. محكوما عليه فوق الفراش الذى يجمعه بميتا .. وميتا لا تجد نفسها إلا فوق هذا الفراش .. لا تريد أى شىء بعيدا عنه .. إنها لا تحاول أن تفتح لنفسهـا وله أبـواب المجتمع .. لا المجتمع المصرى ولا المجتمع الأجنبى .. لا تحب أن تكون بين الناس .. وقـد حاول هو كثيرا أن يخرجها من غرفة النوم .. كان يتعمد دعوة أصدقائه وزوجاتهم إلى البيت .. ويتعمـد أن يـدعى خـارج البيت .. خـارج غـرفـة النـوم .. وتستسلم ميتا لهذه الدعوات ولكنهـا تجلس بين الناس صامتة كأنها

قطعة من الديكور أو كأنها عروس مصنوعة لتجميل المقعد الذى تجلس عليه .. والناس تتفرج عليها .. هذا اللون الغريب من الجمال .. ويحاول كثير من الرجال والنساء أن يشدوها إلى الكلام .. إلى حكاية ولكنها تهرب من الكلام ومن الحكايات .. حتى يشبع الناس من الفرجة عليها ويضيقون بمحاولة شدها إليهم فينصرفون عنها ويضطر عصام أن يعود بها إلى غرفة النوم .. وقد سلط عليها عائلته أصبح إخوته يكادون يعيشون معه وأمه تقضى أياما وليالى داخل البيت .. وميتا مستسلمة .. لا تعترض .. وتجلس بينهم صامتة ثم تسبقه إلى غرفة النوم .. وهناك .. بمجرد أن تقترب من الفراش تصبح إنسانة أخرى .. تدب فيها الحياة .. تبرق عيناها وتتفتح شفتاها وتتكلم وتحكى وتضحك .. وتأخذه إليها .. وأكثر ..

إنها بخيلة .. ربما لم تكن بخيلة ولكنها تتصرف فى أموالها كأنها سائحة تقضى أياما فى هذا البلد .. وكان هذا البيت هو الفندق الذى تقيم فيه وتدفع تكاليف إقامتها .. وهذا الرجل هو الترجمان أو المرافق الذى يخدمها ويقدم كل ما تطلبه .. هذا البلد ليس بلدها .. وهذا البيت ليس بيتها .. وهذا الرجل ليس زوجها .. وقد حاول أن يربطها أكثر، فاقترح عليها أن تشترى «فيلا» ليقيما فيها .. إنه يعلم أنها تستطيع أن تدفع ثمن هذه الفيلا وقد ذهبت معه فعلا ورأتها ولكن لم تشترها، رغم أنه أكد لها أن العقد سيكتب باسمها لا باسمه .. انها تفضل أن تعيش فى شقة .. إذن لنشتر شقة بدلا من إيجار هذه الشقة المفروشة الغالية .. إنها ستبقى لنا العمر كله .. ولكنها لم تشتر شقة .. بل انه حاول أن يقنعها بأن تضع أموالها فى أحد البنوك المصرية ولكنها تفضل وتصر على أن تحفظ أموالها فى شيكات سياحية .. صحيح أنها استوردت سيارة مرسيدس من الخارج وكتبتها باسمه ولكن لعلها لم تقصد أن تكون هدية له بقدر ما كانت تقصد أن تغطى حاجتها

الشخصية إلى سيارة .. إنها سيارتها حتى لو كانت باسمه ..

وهو يراجع نفسه شهرا بعد شهر .. ماذا كان يريد بهذا الزواج أو بهذه المغامرة .. كان يريد أن يرتفع إلى مستوى زوج ابنة نائب رئيس جمهورية .. ولكنه وجد نفسه بلا مستوى .. المجتمع لا يحس بميتا كابنة نائب رئيس جمهورية ولا يعامله على أنه زوج ابنة نائب رئيس جمهورية .. لقد كان يتطلع إلى أن تفتح أمامه أبواب المجتمعات الرسمية والمجتمعات الراقية .. أن تفتح أمامه آفاق فرص كثيرة ليبنى لنفسه شخصية جديدة ربما استطاع أن يجعل منها شخصية عالمية ولكن لم يفتح أمامه باب واحد من أبواب هذه المجتمعات حتى باب السفارة التى تمثل بلد زوجته .. كأنه كان من المعروف أن «ميتا» تعتذر عن كل الدعوات الرسمية أو ربما لأن السفارة لا تعترف بأن لها قيمة تدعى بها .. بل إنه طوال هذه الشهور لم يجدها قد تسلمت خطابا واحدا من أبيها أو من أخيها ولم تكتب هى خطابا لأحد ، كل ما كانت تكتبه برقيات إلى أحد وكلاء أبيها ليرسل لها ما تحتاجه من مال..

حتى فى مصر .. إن المجتمع الرسمى الحكومى لم يضع أى أهمية لهذا الزواج .. مسألة شخصية لا تهم الدولة .. وقد كان يتخيل أنه بهذا الزواج سيدعى فى المناسبات الرسمية .. إنه زوج ابنة نائب رئيس جمهورية .. ولكن أبدا .. لا أحد يحس به بل إنه يحس أنه فقد قيمته وشخصيته المهيبة الجادة التى كان يعرف بها .. لقد أبعد عن المراكز التى كان يتحمل فيها مسئوليات مباشرة ، ووضع فوق مقعد أمام أحد المكاتب .. مجرد منظر .. ورؤساؤه وزملاؤه أصبحوا يقابلونه بابتسامة لا يستطيع أن يفسر معناها .. هل هى ابتسامة يغطون بها حسدهم على زواجه .. هل هى ابتسامة تريقة وسخرية .. إنها لا شك ليست ابتسامة تقدير .. وقد أقام لهؤلاء الرؤساء والزملاء

أكثر من دعوة فخمة .. وكانوا كلهم يلبون الدعوة .. يأكلون كثيرا ويشربون كثيرا ويضحكون كثيرا .. ولكنهم لا يرتفعون به كثيرا كأنهم يقضون ليلتهم فى مطعم لا فضل له فيه ..

والأهم من كل ذلك ..

إنه يستنزف ..

إن ميتا تمتصه ولا تشبع أبدا مهما أمتصت منه .. انها مريضة ..

لا شك أنها مريضة ..

ربما لم تتزوجه إلا أنها قدرت أن فيه ما يشبع مرضها .. لقد تزوجته فى يومين .. لم يكن يجمعهما شىء إلا شكله .. هذا القوام الطويل وهذه العضلات المرسومة القوية وهذه الخطوط الجادة .. شكل يغرى أمثال هاتيك المريضات ..

وقد حاول كثيرا أن يخفف من مرضها .. أن يلهيها عن نفسها .. ولهذا كان يحاول أن يأخذها إلى المجتمعات .. وحاول أن يعودها الاحاديث الطويلة بدلا من الاسترخاء .. أبدا .. إنها تجرى إلى الفراش كالمريضة التى تجرى إلى غرفة العمليات وتستلقى ليجرى لها الطبيب عملية قبل أن تموت ..

وأحيانا كان يهرب منها .. كان يدعى أنه مسافر إلى الاسكندرية فى عمل وقد يغيب يومين أو أكثر أو يغيب أسبوعا .. ولكن لا يكاد ينقضى يوم واحد حتى يأكله الشك .. إن هذه المريضة فى حاجة لمن يحقنها .. وقد تضعف عندما تغيب عنها الحقنة فتبحث عن طبيب آخر غيره ليحقنها .. ويجرى عائدا إليها حتى لا تفضحه أمام طبيب آخر ..

وهو يضعف ..

أصبح هو الآخر مريضا ..

وبدأ يبحث عن الأدوية التى تحفظ له قوة شبابه .. كأنه أصبح واحدا من العواجيز الذين يحلمون ويحاولون استرداد الشباب ..

وضعفه يستمر ويقلقه ..

وقد فكر أن يسافر معها إلى بلدها .. لعل هناك ما يشغلها عن نفسها وعن مرضها .. ولعله يستطيع أن يسترد هناك كل قوته .. لقد سمع عن لمسات كالسحر تحتفظ بالشباب العمر كله ..

وهى تدهش فى سذاجة بريئة .. لماذا يريد أن يسافر .. ما الفرق بين الفراش هنا والفراش هناك ..

وعدل عن فكرة السفر ..

وكان قد مضى على الزواج عام وبضعة شهور وأصبح مقتنعا أنه لا يستطيع أن يستمر .. لا يمكن .. مستحيل .. يجب أن يتخلص منها .. يجب أن ينقذ نفسه ويتفرغ لاسترداد مكانته وقيمته وشبابه ..

واستمعت له ميتا فى صمت ..

كأنها مومس تعرف أن ليس من حقها مناقشة الزبون ..

ربما لم يكن عصام رفعت هو أول رجل يقرر هجر «ميتا» فقد تلقت خبر اعتزامه الطلاق بهدوء غريب حتى عيناها لم تتسعا كما هى عادتها عندما تفاجأ بخبر جديد عندما تشتهى رجلا جديدا .. بقيت تنظر إليه كأنها تنظر إلى اناء اكتشفت انه أصبح فارغا بعد أن شربته كله .. وتركته يتكلم دون أن تعلق بشىء ، ثم رأته يجمع ملابسه وحاجياته دون أن تراجعه فى شىء .. ربما أخذ أكثر مما له .. لا يهم .. وكانت قد استوردت من بلدها كأسين .. كأس له وكأس لها .. عودته أن يتبادلا بهما الشراب وهما فى الفراش لقد أخذ الكأسين .. لا يهم .. ولم تراجعه فى السيارة المرسيدس .. إنها له .. فقط عندما اكتشفت ضياع دبوس ذهبى محلى باللؤلؤ والماس .. وكان يمكن ألا يهمها هذا الدبوس أيضا لولا أنه من بقايا ذكريات أمها وهى لم تتعلق بأحد منذ ولدت إلا بأمها رحمها الله .. لا أبوها ولا أخوها .. لم يكن لها إلا أمها ..

وكان عصام يتردد على البيت كثيرا بعد أن أعلنها بالطلاق ..

وكانت تلاحقه بعينيها من بعيد فى صمت ، وتتسع عيناها أحيانا وقد أخذها الحنين إليه وتقترب منه وتلتصق به .. لا يهم طلقها أو لم يطلقها .. لعل فى الكأس جرعة أخرى تستطيع أن ترتوى بها .. ولكنه لا يريد .. انه يزيحها فى قرف .. إلى أن انتهى من أخذ كل ما يريد وسلمها ورقة الطلاق وحرم على نفسه دخول عمارة ليبون المطلة على النيل .. لقد كلفته هذه العمارة كثيرا .. كل قواه .. حتى أصبح يتخيل كأن كل من يدخلها أو يسكنها يدفع نفس الثمن .. وميتا تعود وتبحث عن دبوس أمها وتراجع كل هذه الأيام التى كان عصام يتردد خلالها على البيت بعد أن أعلنها بالطلاق .. لا يمكن أن يكون قد أخذ الدبوس إنه لم يقترب من الدرج الذى كانت تحتفظ به فيه .. لا يمكن .. ليس هذا هو عصام .. إن كل ما أخذ أشياء تتعلق به رغم انها ليست ملكه .. ورغم ذلك لتتأكد ..

واتصلت بالتليفون ببيته ومكتبه ..

إنه ليس هنا .. سافر .. ولا أحد يعلم أين سافر ولا متى يعود .. ربما هرب .. ولكن ممن يهرب .. انها فى مصر امرأة عادية أو هكذا وضعت نفسها ، فلا يمكن أن تستحق الهرب منها .. ولا يمكن أن يهرب من بلده من أجل دبوس حتى لو كان محلى باللؤلؤ والماس .. لعله سافر ليسترد نفسه ..

ولأول مرة يرى الخدم «ميتا» وهى تبكى .. لم يكن أحد يصدق أنها يمكن أن تبكى كأن هاتين العينين الضيقتين لا تتسعان للدموع .. وهى نفسها تعلم أنها لم تبك منذ زمان طويل .. منذ ماتت أمها .. وهى اليوم تبكى أمها .. إن هذا الدبوس هو أمها .. رغم أن كل من حولها اعتقدوا أنها تبكى عصام .. وقد استمرت بها نوبة البكاء أياما إلى أن جاء لزيارتها سكرتير يعمل فى سفارتها ليستكمل لها الاعداد لسفرها عائدة إلى بلدها .. ورأى السكرتير دموعها ثم سمع حكاية

الدبوس .. لعل أحدا من الخدم سرقه يجب ابلاغ البوليس ..

وقبل أن تقول «ميتا» رأيها كان سكرتير السفارة قد أبلغ البوليس وجاء إلى البيت ضابط البوليس رشاد خلف الله .. وما كادت «ميتا» ترفع إليه وجهها حتى اتسعت عيناها ..

إن رشاد ليس فى شباب عصام وليس له اتساق قوامه الطويل ووسامة وجهه الجاد .. إنه فى الأربعين من عمره .. لعله فى الثانية أو الثالثة والأربعين .. ولعل ما فتح عينى «ميتا» إليه هو فحولته .. فحولة فلاح كفحولة الثور القوى الذى يثق فى فحولته ويتباهى بها .. فحولة يعبر عنها قوام عريض مدكوك العضلات ووجه أسمر تغلب عليه امارات القسوة وعينان نهمتان يبدو نهمهما طبيعيا حتى يضطر من أمامه أن يقبل نهمه ..

وفهم رشاد فى نظرة واحدة كل ما عبرت عنه عينا «ميتا» .. وأهم مايعتمد عليه رجل البوليس الناجح هى نظراته .. إنه لا يرى بهما فحسب ولكنه يستشف بهما ما وراء النظرة .. تلسكوب يكتشف ما فى داخل الإنسان .. وقد اكتشف رشاد ما فى داخل «ميتا» .. وتركها تقترب منه أكثر وهو يستوعب قوامها القصير النحيل وخطوطها التى تبرز ثدييها وخصرها .. وعينيها الضيقتين كخطين جرهما الرسام بقلم رفيع .. وشفتيها الضائعتين وسط لونهما الذى يميل إلى الاصفرار المزوج بالسمرة .. وتركها تحدثه باللغة الإنجليزية التى تنكسر فوق لهجتها الأصلية المتماوجة الانغام دون أن يهمه ماذا تقول .. ثم طلب أن يجتمع بخدم المنزل .. السائق والطباخ واثنين من السفرجية وسعدية .. إن سعدية لا تبدو كأنها خادمة ولكنها تبدو بالثوب الذى ترتديه وبوقفتها المشدودة كأنها تفرض احترامها على الجميع وكأنها سكرتيرة أو مديرة منزل ..

وأدار رشاد عينيه فوق وجوههم دون أن يسأل شيئا أو يتكلم

كلمة .. ثم أدار وجهه إلى «ميتا» وابتسم ابتسامة تكشف عن أسنان قوية ناصعة وسألها فى صوت خفيض كأنه يغازلها :

ـ كم مضى عليك فى القاهرة ..

وأجابت ميتا وعيناها تزدادان اتساعا كأنها تريد أن تحتضنه بعينيها وهى تبتسم كأنها نسيت الدبوس ونسيت دموعها :

ـ عام ونصف .. عام وسبعة شهور ..

وقال من خلال أسنانه الناصعة القوية : ـ آسف .. لم أرك من قبل حتى تكونى فى حمايتنا ..

وقالت كأنها فرحة .. ـ هل أنا الآن فى حمايتك .

قال وعيناه النهمتان تنهمران عليها .

اطمئنى .. ثم استدار مرة واحدة ووضع ذراعه فى ذراع سعدية وقال وابتسامته تتسع ولسانه يبحث عن كلمات انجليزية فى قاموس لا يحفظه :

ـ سآخذ منك سعدية وسنعود بعد قليل ..

وشهقت سعدية وهمت أن تثور ولكنها توقفت أمام عينيه واستسلمت له ..

ومضى اليوم كله حتى كان المساء ..

وعاد رشاد إلى عمارة ليبون .. عاد وحده بلا سعدية ..

واستقبلته «ميتا» وعيناها أكثر اتساعا وشفتاها الضائعتان منفتحتان إليه ..

وأعطاها الدبوس..

وقالت وهى تلتصق به وعيناها متعلقتان بفحولة وجهه ودون أن تنظر إلى الدبوس:

ـ دعنى أقدم لك كأسا..

قال وأنفاسه تلف وجهها كأنه يخدرها :

ـ أنا لا أشرب الخمر..

قالت وهى تلتصق به أكثر:

ـ ماذا تشرب..

قال وهو يشدها بين عضلاته المدكوكة وفى عينيه نظرات وقحة:

ـ اشربك أنت..

وعلت الفرحة وجهها كأنها تزغرد لليلة زفافها.. وتركته يشربها وتشربه..

●●●

وكان رشاد خلف الله، منذ صباه يؤمن بالحلول السريعة الصريحة.. الحل هو أن يضرب فلانا فيضربه بلا تردد.. الحل هو أن يهرب فيهرب بسرعة.. وربما لهذا اختار أن يلتحق بكلية البوليس.. إن مهمة رجل البوليس هى مهمة سريعة صريحة.. وقد تزوج لأن الزواج كان هو الحل السريع الصريح عندما رأى هدى تسير مع أمها فى شارع قصر النيل ولم يستطع أن يقاوم انبهاره بها.. وقد انجب منها ولدين خلال عشر سنوات ثم وجد أن هذا يكفى.. لا يريد مزيدا من الأولاد ولم يعد يريدها.. وكان الحل السريع والصريح هو أن يطلقها ولكن كان وراء مظهره الذى يعبر عن القسوة والعنف احساس يفيض بالطيبة والرحمة.. إنه لا يستطيع أن يقسو على ضعيف.. ولذلك لم يطلق زوجته انما اكتفى بهجرها حتى لا تتشرد ويتشرد معها ولداه.. وربما رحبت هدى بهذا الهجر ورضيت به فقد كانت قد تعبت منه..

وقد عرف عن رشاد هذه الطيبة حتى بين اللصوص والنشالين والمجرمين الذين يقعون بين يديه.. كان لا يكاد يقف أمامه أحد المقبوض عليهم وهو داخل قسم البوليس حتى يقفز من وراء مكتبه وينهال عليه ضربا.. إن الضرب هو الحل السريع الصريح للحصول على الاعتراف.. وبعد أن يعترف المقبوض عليه خصوصا فى الجرائم

الصغيرة كجـرائم السرقـة أو النشل أوالتعـدى بـالضرب كـان كثيرا ما يجد أن المقبوض عليـه فى حاجة فعلا إلى السرقـة أو النشل أو كان على حق فى الاعتـداء فيصيغ محضر التحقيق بحيث يفرج عنـه ويثبت براءته ويكفيه « العلقـة » التى نالها قبل التحقيق.. حتى لو كان المتهم بريئا فعلا فقد كان فى حـاجة إلى هذه العلقة حتى لا يضع نفسه مرة أخرى فى وضـع يقوده إلى قسم البوليس..

وعندما أخذ معـه سعدية خادمة « ميتا » كانت نظـراته الثاقبة لها قد اقنعته بأنها لصة هـاوية.. أى انها لا تحترف السرقة ولكنها مجرد هواية أقرب إلى المرض النفسى.. لم يبدأ بضربها كعـادته ولكنه تركها تحت عينيـه تحس انـه على وشك أن يضربها أو يأمر بـالقبض عليهـا فـاعترفـت.. اعترفت حتى قبل أن تصـل إلى مبنى قسم البـوليس وصحبتـه إلى حيث اعـادت إليه الـدبـوس الـذهبى المرصع باللـؤلـؤ والماس.. ولم يقبض عليهـا بل ولم يحرر لها محضرا .. تـركهـا حـرة واكتفى بأن سجل فى دفاتـر البوليس بأنه عثر على الحليـة بعد البحث داخل البيت..

وهكذا كـانت شخصيته عنـدما التقى بـ « ميتا ».. لقـد عرف من التقاء عينيها بعينيه أن الحل السريع الصريح هو أن يأخذها فأخذها..

«وميتا» تـريده كل يـوم وبدأ يتعود على عمارة الليبـون المطلة على النيل وأصبح من حقه أن يقضى الليل فوق هـذا الفراش الوثير داخل هـذا البيت الغنى، وهو يحس بـأنها ليست جميلة.. ويحس بحجمهـا الصغير بين ذراعيـه وكأنـه يلعب بعـروسـة ممـا يلعب بها الأطفـال، ولكنها تعـوضه بكل هذا الاستسـلام وبكل هذا التدليل.. إنها تعـد له كل شىء حتى حذاءه تنحنى لتضعـه فى قدميه.. ربما كـانت هذه هى تقاليـد بلدها.. المرأة جـارية للرجل.. لقد عـاش طوال عمره وهـو عبد للمرأة التى يريدها.. لم يتمتع فى حياته بكل هذا العز.. وقد بدأ يلاحظ

انها تريـد منه الكثير.. تريـده أكثر مما يريـدها.. معذورة.. انـه جبار هكذا كان يحس بنفسه..

ولكن اجـراءات السفر قـدتمت و« ميتا » ستعـود إلى بلدهـا.. وقد اجلت عـودتها أسبوعا وأسبـوعين ولكنها لم تعـد تستطيع التأجيل.. رغم تعلقها به يجب أن تعود..

ماذا يفعل..؟

إن الحل السريع الصريح هو أن يعود معهـا.. يستقيل ويتزوجها.. لم لا..

لا يمكن أن تخطـر فى حياتـه امـرأة مثلهـا.. انها ابنة نـائب رئيس جمهوريـة وهو يعلم أن ابـاها مليونيرا.. أبـواب الجنة فتحت أمـامه.. الحظ يرتفع به إلى فوق وينتشلـه من وراء هذه القضبان التى تسجنه داخل مستقبل لا يزيد على قيمة مرتبـه.. انه هناك سيكون شيئا آخر.. زوج ابنة نائب رئيس جمهورية.. المليونير.. وقد يعين هناك قائدا عاما للبوليس أو يصبح رجل أعمال يجنى الملايين من وراء الصفقـات.. انه لا يفكر لنفسه فقط ولكنه يفكر أيضا لـولديه وزوجته هدى.. سيرتفع بهم لمستوى أصحاب الملايين..

ولكن لماذا تركها الزوج الـذى سبقه عصام رفعت؟ لا شك انها هـى التى تـركته.. لا يمكن أن يضحى رجل بـزوجـة هى ابنة نـائب رئيس جمهورية.. وقال لها وهى بين ذراعيه:

ـ سأسافر معك..

واتسعت عيناها كأنها تزغرد فرحة بنفسها وقالت:

ـ هل تستطيع؟

قال وهو ينفخ صدره فى غرور:

ـ طبعا أستطيع..

قالت وهى لا تزال فى فرحتها:

ـ ولكنك قائد البوليس..

قال فى استهانة:

ـ استقيل واتزوجك واسافر معك..

وسكتت قليلا وانكمشت ابتسامتها كأنها تفكر ثم قالت وهى تعود وتخرج شفتيها من وراء الضياع:؟

ـ ولكنك متزوج..

قال:

ـ لايهم.. الشرع يعطينى الحق..

قالت وهى تبدو كأنها تشفق على زوجته:

ـ هل ستطلقها؟

قال:

ـ لا.. ستبقى مع الأولاد..

وعادت تسكت برهة كأنها تفكر ثم قالت وهى تعبث بأصابعها الصغيرة فى شعر صدره العارى:

ـ نتزوج ولكن ليس هنا.. لقد تزوجت هنا مرة وفشل زواجى.. أصبحت اتشاءم من زواجى هنا.. لنتزوج هناك.. فى بلدنا..

وقال وهو يحضنها بابتسامته التى تكشف عن أسنانه القوية..

ـ قولى الحق.. انك تريدين أن تستأذنى والدك قبل الزواج..

ونظرت إليه فى دهشة كأنها فوجئت بشىء لم يخطر على بالها ثم قالت:

ـ إن من حقى أن اختار زوجى.. ولكن والدى يجب أن يعرف..

قال فى غرور:

ـ ولكن يجب على الأقل أن نعلن خطوبتنا هنا حتى تكون مبررا لاستقالتى وسفرى..

قالت وهى تقترب من شفتيه:

ـ موافقة يازوجى العزيز..

واستقبل رؤساءه طلب استقالته وأسبابها بضحكات عالية ووافقوا عليها ووافقوا على سفره لمجرد ألا يحرموا مصريا من فرصة كهذه رغم أنهم كانوا يعلمون أن هذه الفرصة أعطيت لمصرى قبله ولم يخرج منها بشىء.. لا يهم.. يكفى أن تكون ابنة نائب جمهورية تتهافت على الرجال المصريين.. دعاية عالمية..

وسافر بجانبها على مقعد فى الدرجة الأولى من الطائرة وهى التى تدفع كل النفقات..

ولم يكن الاستقبال عندما وصلا إلى هناك هو ما توقعه.. مجرد موظف يبدو صغيرا فى حجمه وفى مركزه يستقبلهما.. بل كان يستقبلها هى وحدها فهو لم يتقدم حتى لمصافحته وهى لم تقدمه إليه، وسار الموظف بجانبها وهو خلفهما، ولكنهم عندما وصلوا إلى السيارة البويك الفخمة خارج المطار تركه الموظف يجلس بجانبها وجلس هو بجانب السائق.. وكل ذلك دون أن يتبادل معه كلمة واحدة ولا حتى أهلا وسهلا.. لايهم.. إن هذه رحلة خاصة ولايمكن أن يستقبلا بعد عودتهما استقبالا رسميا..

ودخلت بهما السيارة إلى حديقة شاسعة.. خمسة أفدنة.. عشرة.. ويتوسطها قصر كبير متعدد الأجنحة.. وبدأ يشعر بالنشوة.. نشوة الوصول إلى الجنة.. وفتح لهما باب السيارة خادم يرتدى ثوبا خاصا مزركشا.. وسار بجانبهما داخل القصر وهى تقوده إلى جناح يطل على الحديقة الخلفية.. هذا الجناح المخصص « لميتا » جناح يشمل عدة غرف كأنه بيت قائم بذاته يشرف عليه عدد من الخدم.. أكثر من سبعة من الخدم رآهم يهيمون حولهما وفتح له باب.. هذه هى غرفته.. وفى داخلها باب آخر يؤدى إلى غرفتها.. وقالت ضاحكة:

ـ أرجو ألا نحتاج إلى الغرفتين..

ومـر اليـوم دون أن يـرى أحدا من العـائلـة ولا من الأصـدقـاء.. هووهى وحدهما.. وقال لها وهما يتناولان العشاء وحدهما:

ـ الن نرى فخامة الوالد..

قالت بلا مبالاة:

ـ لماذا.. إنى لا أراه إلا إذا كنت أريد شيئا..

قال فى دهشة:

ـ الا نريد الزواج..

قالت فى بساطة:

ـ هذا موضوع لا يهم والدى.. انه أنا وأنت فقط..

وتجهم وجهه وركبته شخصية رجل البوليس وقال فى حدة:

ـ ولكن يجب أن ألتقى بالرجل الذى أتزوج ابنته وأقيم فى قصره..

وارتعشت رموشـها فوق الخطين الـرفيعين اللذين يرسمان عينيها وقالت وهى تفتعل ابتسامة:

ـ ستراه.. طبعا ستراه..

وقامت بعد أن انتهيـا من تناول العشاء وجذبتـه من ذراعه فى رفق وقالت كأنها تدلله:

ـ غرفتك أم غرفتى..

ونظر إليها فى دهشة كأنه صعق وقال..

ـ إننا فى بيت أبيك.. ألا ننتظر الزواج..

وقالت وهى تغريه بابتسامة خجولة وتتمسح فى صدره.

ـ انهم هنا يفترضون اننا تزوجنا..

وشدته فى دلال إلى غرفتها..

والأيام تمر..يوم .. ثلاثة.. وكـان ينتظر منذ اليوم الأول أن تتصل به السفـارة لتهنئه بسلامـة الوصول،بل كـان ينتظر أن يجد السفير نفسه فى انتظـاره بالمطـار.. انه زوج ابنـة نائب رئيس الجمهـورية..

لعلهم لم يبلغوا رسميا بوصوله.. واتصل هو بالسفارة تليفونيا.. ورحب به السفير ترحيبا عاديا متحفظا كأنه يرحب بمصرى عادى وليس زوج ابنة نائب رئيس جمهورية.. وهو ليس عاديا.. انه على الأقل يقيم فى هذا القصر وكان ينتظر أن يأتى السفير لزيارته.. زيارته فى القصر.. ولكن لا السفير ولا أحد من موظفى السفارة يطلب زيارته أو يسأل عنه..

وفى اليوم الثانى سمع ضجيجا فى الجناح الملاصق له.. موسيقى صارخة.. وضحكات.. وأصوات تتكلم وتصرخ.. ثم رأى وهو واقف أمام الشباك المطل على الحديقة شابا يخرج من هذا الجناح وهو يجرى ضاحكا وخلفه رجلان يلاحقانه.. إن الشاب ترك شعر رأسه مسدلا حتى كتفيه وقد علق به زهرة حمراء.. ووجهه يلمع كأنه مدهون بالاصباغ.. وبنطلونه محزق حول وسطه كأنه يرتديه تحت جلده.. لاشك انه شاب شاذ.. مصاب بالشذوذ.. مصاب فى رجولته.. وقلب رشاد شفتيه فى قرف.. عندما كان يصل إليه فى مركز البوليس شاب من هذا النوع من يحكم عليه بيوم كامل يضرب فيه ويتبادل ضربه كل عساكر القسم قبل أن يبدأ التحقيق معه..

وقالت « ميتا » وهى واقفة بجانبه وبين شفتيها ابتسامة وفى عينيها نظرات اعجاب وحنان .

إنه أخى .

قال وهو يكاد يبصق قرفه من بين شفتيه:

ـ الن تقدمينى إليه..

وقالت وهى تحنى رأسها فى خجل كأنها عذراء لا تستطيع أن تنطق بالكلمة:

ـ انه لا يدخل فى اختصاصك.. لا أعتقد انك تستطيع أن تتعامل معه..

هل تقصد أن أخاها من هذا النوع.. وتعترف.. وأدار ظهره

للشباك وهو حائر.. لا يدرى ماذا يقول.. وماذا يطلب .. وكيف يتصرف.. ويحس لأول مرة أن ذكاءه يخونه..

وكانت تصحبه فى السيارة كل يوم وتطوف به حول المدينة.. ترتفع به فوق الجبال وتهبط به الوديان وتعبر به الأنهار.. وهو مبهور بهذه الطبيعة الأسيوية.. انها أول مرة يخرج فيها من مصر ليرى كل ذلك.. حتى الغابات التى كان يسمع عنها أو يراها بخياله رآها بعينيه..

وتصحبه خلال الطريق ليتناولا الطعام فى مطعم.. انها تستقبل استقبالا عاديا كأنها لم تفاجىء أحدا بحضورها رغم انه يبدو ان الجميع يعرفونها.. ولا أحد يهتم به أو يتقدم لتحيته حتى ولا الجرسون.. يجب أن يتعود أن يتولى هو فرض شخصيته.. أن يثبت وجوده.. ولكن كيف..

وتعود به فى آخر النهار إلى الفراش.. ان كل بيتها هو هذا الفراش.. بل لعله كل دنياها.. انه لم يكتشف لها أى نشاط اجتماعى رغم ان المرأة فى بلادها مدت نشاطها الاجتماعى والسياسى حتى وصلت إلى مركز الوزارة وسمع عن نساء يتولين مناصب القضاء.. وهى لاتقيم ولا تدعى إلى حفلات لا رسمية ولا شخصية.. مرة واحدة قالت له انها مدعوة إلى حفل عام لعله كان حفل عيد الاستقلال ولم يكن مدعوا معها.. وفيما عدا ذلك فلا يدخل البيت إلا هذا الموظف الصغير ويجلس معها وقد علم انه السكرتير المعين لها للاشراف على حسابات ميزانيتها.. يبدو ان أباها قد خصص لها ميزانية محددة.. وهى لا تقول له شيئا عن هذه الميزانية، وهو ينتظر بين يوم وآخر ان تتكلم عن نظام المعيشة بينهما.. من أين يعيش.. وكيف يعيش فى بلدها.. ولكنها لا تقول شيئا.. وقد بدأ يكتشف ويقتنع انها بخيلة.. انها تنفق عليه أولا بأول.. تدفع المصاريف وتعفيه من ان يضع يده فى جيبه..

مصـاريف تافهـة. ولم تفـاجئه يـوما بهديـة لها قيمـة.. كلها أشيـاء صغيرة.. وقد تذكرت يوما انه لم يحمل معه ملابس الصيف فاعتذرت له عن اهمالها ثم فوجىء بسكـرتيرها الصغير الحجم والصغير المركز يأتى إليـه ومعه ثـلاثـة يحملون لفـافـات كثيرة.. صنعت له بـدلتين صيفى وستة قمصـان وستة غيـارات.. وعرضـوا عليه مجمـوعة من الكـرافتات واختـار اثنتين وقبل أن يختار الثـالثة كـان السكرتير قـد سحب المجموعة من أمامه..

وقال لها يوما إنه فى انتظار وصـول أمواله التى حولها من القاهرة ولكنـه لم يتلق أى شىء.. لا يـدرى مـاذا حدث.. وكـان يكـذب.. فكل أمـواله لا تـزيد على خمسمائة دولار جمعهـا من القـاهرة وحملهـا فى جيبـه.. وقـالت وشفتـاها الضـائعتـان تبتسمان من خـلال لـونهما الأصفر المشرب بالسمرة:

ـ لا يهم.. عندنا دائما ما يكفى..

ووجدت السكرتير بعد قليل يحمل لـه مظروفا صغيرا فى داخله من النقد المحلى ما قيمته الف دولار.. مـاذا تساوى الف دولار وهو يعيش فى هذا القصر مع ابنـة المليونير.. ورفع المبلغ الذى استلمـه فى وجهها قائلا:

ـ هل يكفى هذا كبقشيش لخدم القصر..

وقالت « ميتا » من خلال ابتسامتها الخجولة:

ــ لا تعودهم على البقشيش..

ولم تعرض عليه أكثر..

وطلب السيارة ليطوف بها فى أنحاء المدينة وحده.. وقالت:

ألا تريدنى..

قال ضاحكا:

ـ انك وأنت معى لا أرى إلا أنت.. دعينى أرى البلد..

وسار فى شوارع المدينة وعقله مشغول بمصيره.. أنه يفكر فى أن يذهب بنفسه إلى السفارة المصرية لعلهم هناك يستطيعون أن يكشفوا له عن الحقائق التى تحيط به.. عن هذا اللغز الذى يعيش فيه.. ولكنه لا يريد أن يذهب إلا بعد أن يستكمل وجوده هنا.. إلا بعد أن يتزوج ابنة نائب رئيس الجمهورية..ان رجال السفارة إلى الان يتجاهلونه فليفرض نفسه عليهم با لمركز الذى سيصل إليه..

وعاد إلى « ميتا » ووقف أمامها وقد علت وجهه كل ما فيه من علامات القسوة والعنف وصرخ:

ـ اسمعى.. إما أن أقابل اباك اليوم أو أعود إلى مصر غدا.. إنى واثق انه لن يرضى بما نحن فيه..

وقالت «ميتا» وهى تنكمش تحت ذراعه كأنها تحتمى به منه :

ـ ستراه .. ولكن غدا .. أرجوك .. تراه غدا وليس اليوم ..

والتقى به ..

واستقبله متجهما ساخطا كما استقبل من قبله المصرى الآخر «عصام رفعت» وربما كما يستقبل كل من يأتى إليه عن طريق ابنته وقال كأنه يسبه دون أن يمد يده لمصافحته :

ـ ماذا تريد ..

وتحمل رشاد هذا اللقاء الجاف وقال فى أدب :

ـ جئت أشكر فخامتك على ضيافتك لى .. وجئت لأطلب يد ابنتك «ميتا» .. لقد التقيت بها فى القاهرة ..

وقاطعه الأب فى حدة :

ـ أنا لم استضفك حتى تشكرنى .. وحياة ابنتى الخاصة ليست من اختصاصى .. ليس فيها ما أقبله أو أرفضه .. أفعل معها وبها ما تتفقان عليه ..

وفوجىء «رشاد» بهذا الأب وهذه الوقاحة رغم أن «ميتا» كانت قد

حذرته من قبل .. وقاوم .. إنه ضابط بوليس يستطيع أن يتحمل كثيرا من المفاجآت ويستطيع أن يتفاهم مع كل العقليات .. ربما لم تكن هذه العقلية التى أمامه عقلية أب ولا حتى عقلية منصب كبير ولكنها لا شك عقلية مليونير .. والمليونيرات كاللصوص .. الموضوع الذى يهمهم هو موضوع الاستيلاء ..

وقال «رشاد» وهو يستعين بكل ذكائه وكل لباقته : — ربما هناك موضوع آخر يهمك فانى أعلم أنه سبق لك زيارة مصر وهناك مجالات كثيرة للتعامل مع مصر يمكن أن نحقق من خلالها مشروعات كبيرة و .. وعادة الأب يقاطعه :

ـ لقد زرت مصر بصفة رسمية .. مجرد تبادل مظاهر دولية .. ولم يكن يهمنى أن اكتشف أى مجال فيها ولا أعتقد أن فيها ما يهمنى .. إذا كان هناك ما يهمك أنت فاعرضه على الجهات المسئولة .. وآسف .. أنا مشغول .. مع السلامة ..

وخرج مطرودا يجرى إلى «ميتا»..

— وأمسك بها من كتفيها كأنه يعصرها بين كفيه وصرخ :

— لنتزوج.. اليوم.. حالا.. الزواج.. الزواج الآن .

وسقطت «ميتا» تحت قدميه وأخذت تمسح وجهها فوق حذائه وهى تقول :

— أنك لا تحبنى.. انك تريد الزواج ولا تريد الحب.. وقال صارخا الزواج حتى أتساوى مع ابيك واستطيع أن أرد عليه.. وقالت وهى ترفع إليه وجهها فى استجداء :

— انك لا تعرف بعد هذا البلد.. إن الزواج لن يحدد لك وضعا.. لقد جرب المجتمع المرات التى تزوجت فيها.. أربع مرات فشلت كلها كلها. وستكون أنت الفشل الخامس.. إنى أعرف.. لا أحد اتزوجه إلا ويسعى إلى الطلاق.. لن يحمينا إلا الحب.. والاكتفاء بالحب ..

وعاد يصرخ :

— انك لا تعرفين الحب.. لاتعرفين إلا الفراش..

قالت وهى تزال تحت قدميه :

—وأين نجد الفراش إذا تزوجنا.. إن أبى لا يسمح لى باقامة هنا إلا لأننى لست متزوجة.. انه لايسمح بأن يقيم فى بيته إنسان منسوب إليه رسميا.. ولكنه يسمح فقط بإقامة الضيوف.. فأين تقيم بعد الزواج.. سنضطر أن نعود إلى القاهرة أو نسافر إلى أى بلد ونبقى دائما تحت رحمة أبى ..

وكل طبيعته كرجل بوليس تتجمع فى اعصابه.. هذه المرأة مجرمة.. لصة.. سرقته.. ورفع قدمه وشاطها بقسوة حتى تدحرجت أمامه على الأرض.. وهو يصرخ :

— لقد وعدتنى بالزواج.. انى لم آت إلى هنا إلا لأتزوجك .

وتركها وخرج من البيت.. خرج مطمئنا إلى انه لم يؤذها ولم يحطم منها شيئا عندما ضربها فقد تعلم كيف يضرب دون أن يترك اثرا على الجسم.. واستدعى السيارة وهو يأمر كأنه قرر أن يكون صاحب البيت .. وأمر السائق أن يطوف به خارج المدينة وهو تائه فى افكاره.. هل يعود إلى مصر.. هل يعود وهو يحمل فشله وفضيحته وبقايا قواه المستنزفة.. لابد أن هناك وسيلة يستطيع أن يصل بها إلى شىء.. انه لا يعلم كل شىء عن هذا البلد ولا عن ميتا وعائلتها.. ربما كان عليه أن يبدأ بالاتصال بالسفارة المصرية وأن يصادق رجالها ليعرف كل شىء وليحتفظ باحترامه لنفسه بحمايتهم بدلا من وحدته فى فراش ميتا..

واستقبله السفير فى حدود اللوائح الرسمية.. لم يرحب به ولم يشجعه على اكتساب صداقته.. ولكن مستشار السفارة كان شابا

يعرفـه وسبق ان التقى بـه لقاء عـابر فى القاهـرة.. ورحب المستشار وقبل صداقته وبدأ يقول له كل ما لا يعرفه ..

إن أباهـا ليس لـه أهمية منصبه فى بلـده.. انه عين فى هـذا المنصب كتغطية لـلأوضاع الطائفية.. مجرد مظهـر من المظاهر التى تـرمز إلى وحدة البلـد حتى لو كانت وحدة كـاذبة.. كل بلاد الدنيـا يحدث فيها هذا التنظيم المظهرى.. انهم فى الهند يختـارون رئيس الجمهورية من المسلمين دون أن تكون لـه أى سلطات تنفيذيـة.. السلطة كلهـا فى يد رئيس الـوزراء الهندوكى.. لمجـرد تغطيـة مظاهـر الـوحدة وارضـاء النزاعات الطائفية.. وهكذا ابـو ميتا.. ليس له نفوذ فى البلد.. وقد اختير نـائب رئيس جمهـورية لأنـه أغنى فـرد فى طـائفته .. انـه مليـونير.. ولا يزال كل ما يهمه هو ملايينه.. لا يهمه هذا المنصب فى شىء.. وعلى قدر نجاحـه فى استثمار ملايينه فهو مصاب فى ابنتـه وفى ابنه أيضـا.. كـلاهما مريض.. مـريض بالشـذوذ.. والمجتمع كله يعلم بمـرضـهما ويتنـدر بقصص هـذا المرض حتى لم يعـودا مقبولين فى هـذا البلـد.. وأبوهما حاول أن يصـد عنهما هذا الشذوذ.. ولكن مستحيل.. وانتهى إلى أن خصص لكل منهما جناحـا فى قصره لممارسة هذا الشـذوذ بدلا من أن يفضحـاه فى شوارع ومجتمعـات البلد.. وعنـدما صحب معـه ابنته إلى القاهـرة كان فى طريقه لان يـدخلها مستشفى فى ألمانيا سمع انه يعـالج الشذوذ ولكن شـذوذها تغلب عليها عنـدما التقت بـالرجل الذى تزوجتـه هناك.. وتركها أبـوها لشذوذها لأنـه يخشى الفضيحة إذا تصدى لها ..

وكان رشاد يعلم أن ميتا مريضة.. أو على الأقل كان يقدر شذوذها ولكنه لم يكن يعلم انها معروفة بهذا الشذوذ..

ماذا يفعل ؟

هل يعود إلى مصر..؟

بعد أن ترك زوجته وأولاده على أمل أن يعود إليهم مليونيرا.. هل يعود يخفى الفشل ؟

وهو لا يستطيع أن يقرر العودة، واحساسه بالفشل جعله أكثر استسلاما لميتا.. وهى تستنزفه.. تمتصه.. وبدأ يبحث عن الأدوية المقوية.. ان ميتا أيضا تبحث له، وتأتى له بأدوية خاصة من اليابان ومن الهند ومن كوريا ويتحدثان معا عن تجربة حقن هـ ٣.. وهى دائما تريده.. لا تمله أبدا,, حتى يشكو الهزال ..

وكان قد مضت ثمانية شهور عندما قال لها :

— انى أريد أن أجد عملا. ضقت بهذا الفراغ ..

قالت فى دهشة :

— لماذا .. ماذا ينقصك.. كل شىء تريده ستجده..

قال فى زهق :

— أريد أن أعمل.. أن أحس بأنى أحمل مسئولية . قالت وهى تبتسم له وتركع تحت قدميه :

— أنا مسئوليتك وأنت مسئوليتى..

ولكنه يلح فى أن تساعده أن يجد عملا.. يحمل مسئوليته.. وعرضت عليه أن يحمل مسئولية مزرعة يملكها أبوها.. وفرح .. انها مزرعة كبيرة.. مئات الهكتارات.. ولكنه عندما ذهب معها إلى هناك لم يجد شيئا يعمله إلا أن يتجول فى الحديقة ويقص الزهور.. انها هى دائما بخيلة.. لا تعطيه شيئا ابدا حتى ولا حق الاشراف على مزرعة..

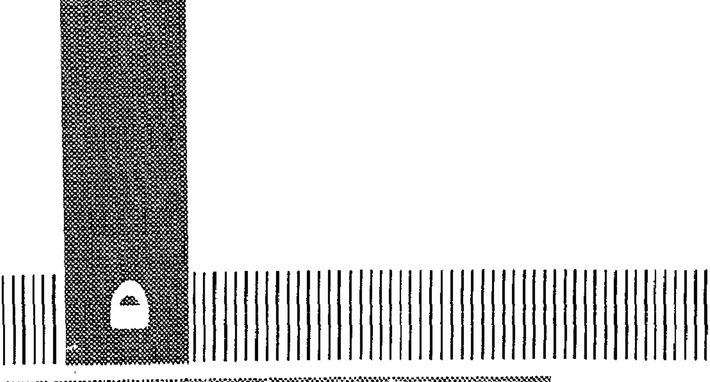
وكان قد مضى عام وبضعة أشهر..

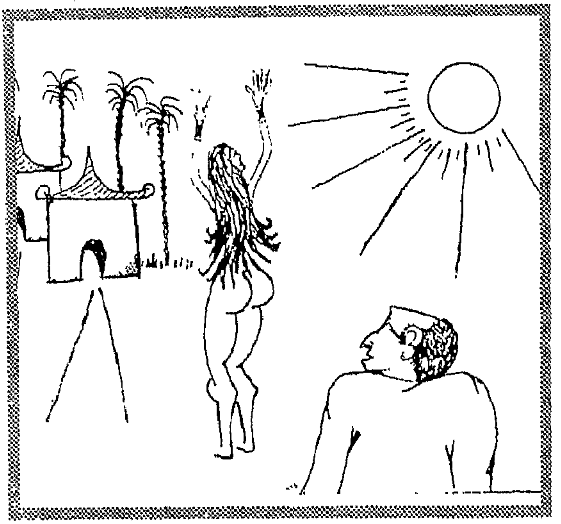
لا أمل.. إن الحل السريع الصريح هو أن يعود.. يجب أن يعود.. واستقبلت قراره كأنها لم تفاجأ بشىء.. حتى لو كانت قد تزوجته لما اختلفت النهاية.. وسكتت كأنها مومس تعلم أن ليس من حقها مناقشة الزبون ..

واعـد له السكـرتير تذاكـر العـودة .. انه يعـود أيضا فى الدرجـــة الأولى..

وميتا تشـــب إليه بعينيها كـــأنها تودعـه بكلمة شكر وهـو يسكب عليها نظـراته من فوق.. نظـرات لا تحمل شيئا من قسـوته بل تحمل كل طيبته كأنه يوعدها بكلمة رثاء ..

تمـــت





كان يعيش

مع لسانه

كــــان يعيــــش
مـــع لســـانه !

كان ضعف مصطفى عبد القادر فى لسانه .. كل أفكاره وأحاسيسة تنعكس على لســانــه .. يفكـر بصوت مسمـوع .. ويحس إحســاســا مسمـوعا .. ويتكلم .. لا يستطيع أن يتـوقف عن الكلام .. وقـد تجده جالسا وحده وهو يتكلم بصوت مسموع .. إنه فى الواقع يفكر وأفكاره تعبر عن نفسها بلسانه .. وقد يجلس ليقـرأ كتابا أو جريدة ينطلق كل مـا يقـرأه على لسانـه .. يقـرأ بصـوت مسمـوع .. وإذا جلس ليكتب خرجت كل كلمة يكتبها من فوق لسانه .. يكتب أيضا بصوت مسموع وقد يتعمـد ألا يكون صوته مسمـوعا فيقرأ ويكتب وشفتاه تتحـركان فوق لسانه دون أن يسمع أحد صوته ..

ولا يدرى متى أصيب بمرض الاستسلام للســانه .. ربما منذ كان طفلا يعلمونه القراءة بصوت مسموع .. باء فتحه با .. سين ضمة سو فتعود على أن يعبر بلسانه عن كل ما يـراه بعينيه وعن كل ما يدخل أو يخرج من عقلـه .. وربما ورث هـذا المرض عن أمـه فقد كـانت امـرأة ثرثـارة لا تكف عن الكلام فإن لم تجد أحدا أمـامها توجه إليـه الكلام انطلقت تكلم نفسهـا بصـوت مسمـوع .. كـانت تقف فى المطبخ وهى تحادث نفسهـا .. هل هـذه كوسـة .. النصـاب ابن النصـاب يبيعنى الكـوســة كأنها قطع من الحجــارة .. وتبقى تتكلم إلى أن تخرج من

المطبخ لتتكلم فى الحمام ثم لتتكلم وهى تشرف على الخادمة التى تكنس فإذا عاد والده ازدحم الكلام فوق لسانها وارتفع صوتها أكثر ووالده صامت دائما ..

وقد تأثر بشخصية أمه أكثر مما تأثر بشخصية أبيه لأن أمه كانت فى البيت هى الشخصية الأقوى .. الثرثرة قوة .. وبلغ من تأثره بأمه أنهما كانا هما الاثنان عندما يجلسان معا يثرثران فى وقت واحد دون أن ينتظر أحدهما الآخر حتى ينتهى من كلامه وأبوه معهما صامت كأنه يستمع إلى مقطوعة موسيقية تطربه دون أن يحتاج إلى فهمها ..

ولم يكن مصطفى يحس بأنه ثرثار أو يعانى من استسلامه للسانه .. كان يعتبر نفسه إنسانا طبيعيا .. أيضا إنسان ناجح .. كان ينجح بتفوقه فى كل سنوات الدراسة ولم يلتحق بكلية الحقوق حتى يتخرج كمحام ويحترف الثرثرة بل التحق بكلية التجارة وتخرج بتفوق والتحق بالعمل فى شركة النصر واستطاع فى سنتين أن يحصل على مركز رئيسى فى الشركة .. إنه دائما يعمل ويدرس ويتفوق ويثرثر .. ولم يكن يلاحظ أن كثيرين من زملائه كانوا يتحملون ثرثرته فى ضيق وكانوا أحيانا ينصرفون عنه قبل أن يتم كلامه .. وأحيانا أخرى كانوا يستزيدونه من الكلام لأن ثرثرته فى الواقع لم تكن كلها كلام تافه أو كلام فاض بل كانت تجمع معلومات وآراء لها قيمتها نتيجة دراساته ..

إلى أن تزوج سعاد ..

ولم تكن فترة الخطوبة طويلة بحيث تستطيع سعاد أن تحكم على مدى تحملها لطبيعة مصطفى .. بل انها اعتبرت ثرثرته مسلية تملأ فراغ أذنيها .. وقد بدأت دهشتها عندما وجدته يتكلم أثناء الزفة التى أقيمت لها .. زفة العروسة .. ثم وهما جالسان على الكوشة .. لا يمكن أن يشغله شىء عن الكلام .. كل هذه الضجة والفرحة وهو يتكلم ..

إنه يروى لها ذكرياته عن أفراح أصدقائه .. ثم يسرد لها تاريخ زفة العروسة وكيف تغيرت التقاليد الفرعونية بعد وصول الإسلام إلى مصر .. ثم يطلق لسانه على كل المدعوين والمدعوات.. وهى بجانبه توزع ابتساماتها وتحيى صديقاتها وتسمع بعض كلامه ولا تسمعه كله ..

وفوجئت أكثر عندما أصبحا وحدهما فى غرفتهما .. ليلة الدخلة .. إنه لا يكف عن الكلام .. إنه يرفع يدها إلى شفتيه ويقبلها ثم يعود يتكلم .. ويخلع عنها ثوبها وهو يتكلم .. وأكثر .. إنها أصبحت بين أحضانه وهو يتكلم .. ويقبلها قبلة سريعة ثم يعود ويتكلم ..

كأنه لا يستطيع أن يستكمل متعته بها إلا وهو يتكلم ..

وهى ..

إنها تريد أن تتفرغ لاحساسها بلحظة عمرها فى هدوء .. فى صمت وعلقت شفتيها بشفتيه حتى تسكته .. ولكنه جذب شفتيه بعد برهة سريعة وعاد يتكلم .. إنه يتكلم وهى بين أحضانه وكلها له .. يتكلم عن الحب وعن المستقبل وعن الأولاد وعن الترقية التى ينتظرها .. واحساسها به يضيع منها .. إنها لا تستطيع .. انها تحس وهو يتكلم كأنها معه فى غرفة الصالون لا فى غرفة النوم .. كأنها معه فى مقهى لا فوق فراش ..

وهو يتكلم حتى بعد أن أطلقها من بين ذراعيه ..

وقالت فى هدوء وبين شفتيها ابتسامة مفتعلة :

ـ أسكت يا مصطفى .. دعنى أنام ..

قال وهو محتفظ بفرحته وبكل حيويته :

ـ لك حق .. لقد كان يوما مزدحما .. لقد صحوت فى الخامسة صباحا وطول اليوم وأنا على قدمى ولكن أتعب ساعة كانت ساعة الزفة .. أتدرين كيف عثرنا على العالمة ..

وبدأ يروى لها حكاية اتفاقه مع العاملة والراقصة والطباخ ..

وصرخت سعاد:

- مصطفى .. قلت لك اسكت .. أريد أن أنام ..

وفوجىء مصطفى ..

ليست هذه لهجة عروس فى ليلة زفاف .. إنها كأنها تأمره .. كأنها تنهره .. ثم لماذا لا تنام وهو يتكلم .. إنه لا يمنعها من النوم .. ولا يريد منها شيئا أكثر .. إن أباه ينام بينما أمه تتكلم ..

وسكت عن الكلام ..

الواقع أنه لم يسكت .. ولكنه كتم صوته لسانه وشفتاه تتحركان يتحدث بهما إلى نفسه ..

●●●

ولم يدم زواج مصطفى وسعاد ..

إنها لم تستطع أن توقفه عن ثرثرته ولم تعد تتحملها .. إنه يقرأ كتاب أبلة نظيرة ويناقشها فى كل طبق تقدمه .. ويقرأ كتب الأزياء والمجلات النسائية ويناقشها فى كل ثوب .. مناقشات .. مناقشات .. .فإذا لم يجد ما يناقشه أخذ يحدثها عن عمله أو عن التاريخ أو السياسة .. وقد تفرغ كله لها .. لا يتركها أبدا مادام ليس فى عمله .. ليس له أصدقاء يرحمونها منه بعض الوقت يتحملون عنها بعض ثرثرته .. وكانت تصرخ فيه .. اسكت .. ثم أصبحت تصرخ فيه .. اخرس .. وترفض كل آرائه لمجرد انها آراء يبديها كعذر لاشباع شهوته للكلام ..

وهو أيضا لم يعد يستطيع أن يستمر فى حياته معها .. انها تريد أن تسكته كما أسكتت أمه أباه .. تريد أن تكون الشخصية الأقوى فى البيت .. مستحيل .. هو الأقوى .. هو الذى يفرض شخصيته هو الذى يفرض طبيعته حتى لو كانت طبيعة ثرثارة ..

وقد انفصلا مرة ومرتين والأهل يعيدون كلا منهما للآخر وفى كل مرة يعود وهو أشد ثرثرة وهى أشد ضيقا إلى أن تم الطلاق ..

وكانت صدمة الطلاق هى التى جعلت مصطفى يعترف بينه وبين نفسه بأنه ثرثار مستسلم للسانه .. ولم يكن يعترف قبلها بأن هذا عيب أو نقص فى طبيعته .. ماذا لو كان ثرثارا .. ان الثرثرة هواية كلعب الطاولة أو كالغناء .. انه يغنى بلا ألحان .. ولم يحاول أن يقاوم ثرثرته بعد أن اعترف بها ولكنه أصبح أكثر حرصا على ألا يضايق الناس بها .. وأصبح يختار الناس الذين يجالسهم ويعتقد أنهم أكثر إقبالا وتحملا لثرثرته .. ويتعمد عندما تغلبه شهوة الكلام أن يتكلم بلا صوت وبمجرد تحريك شفتيه .. ثم أصبح يميل أكثر إلى العزلة .. ينفرد بنفسه بصوت مسموع أو يدخل مع أمه فى أغنية مشتركة من الثرثرة ..

ولن يتزوج أبدا بعد سعاد ..

أصبح مقتنعا بأنه لن يجد المرأة التى تستطيع أن تتحمل طبيعته وتعيش معه ربما لأن كل النساء يردن أن يحتفظن بحق الثرثرة لأنفسهن ولا يتنازلن عن شىء منه للرجل ..

وكانت قد مضت سنوات على طلاقه من سعاد عندما كلفته الشركة بالسفر مع العضو المنتدب والسكرتير العام إلى كوريا لعقد صفقة لاستيراد السمك .. إن مصر تملك نهر النيل وتملك حق الصيد فى بحرين .. الأبيض .. والأحمر .. وتملك خمس بحيرات .. ورغم ذلك تستورد مصر السمك .. وتستورده من آخر بلاد الدنيا .. ومصطفى مقتنع بعملية استيراد السمك .. ان السمك مادة غذائية والمواد الغذائية تتطلب سرعة الطرح فى الأسواق .. واستيراد السمك من الخارج يتم أسرع من استيراد مراكب صيد حديثة ثم تدريب الصيادين على هذه المراكب ثم تدريب السمك المصرى على أن يصاد

ويؤكل بعد أن تعود على أن يلعب مطمئنا فى المياه المصرية ..

وبهر مصطفى بالطبيعة فى كوريا .. الجبال والوديان والثلوج والأمطار والغابات والمزارع .. وبهر أكثر بالإنسان الكورى .. هذا اللون الأسمر المشرب الصفرة .. وهذه الأجسام الصغيرة الخفيفة كأن الناس هناك تطير ولا تمشى .. هذه التقاليد التى تفرض تبادل الاحترام فى مظاهر تبدو وكأنها عبادة .. كل واحد هناك يعبد الآخر .. وانطلق لسانه يغنى بكل ما يراه .. لا يستطيع أن يسكت أبدا عن الثرثرة ولكنه يراعى قوة احتمال العضو المنتدب والسكرتير العام فيكتم معظم ثرثرته تحت لسانه ..

إلى أن دعى مع أعضاء الوفد لقضاء سهرة فى بيت من بيوت الكيسنج .. انها كبيوت الجيشا فى اليابان .. ولكن بيوت الجيشا فقدت أصلها العريق وتقاليدها القديمة وأصبحت بيوتا سياحية يبدو ما تقدمه كأنها استعراضات مفتعلة لبقايا من التاريخ القديم ولمجرد تسلية السواح .. أما بيوت الكيسنج فى كوريا فلا تزال محتفظة بكل عراقتها وتقاليدها ربما لأن الحركة السياحية أخف فى كوريا عنها فى اليابان .. ثم إنها بيوت محترمة إلى حد أن تدعى إليها الشخصيات والوفود الرسمية ..

ودخل مصطفى إلى بهو واسع لامع .. كل شىء فيه يلمع .. وتنتشر فيه كل ملامح الفن الكورى العريق على الجدران وفى قطع الأثاث .. وجلس مع أعضاء الوفد وكبار رجال شركة تصدير الأسماك.. جلسوا على وسائد ملقاة على الأرض حول مائدة واطئة صفت عليها عشرات الأطباق وعشرات الزجاجات من كل أنواع المشروبات .. وكل واحد منهم جلست بجانبه فتاة .. كلهن صغيرات ربما كانت أكبرهن لا تتجاوز العشرين من عمرها ..

وجلست باولاتاو بجانب مصطفى .. انه لم يخترها ثم إنه عود

نفسه منذ سنوات على أن يعيش فى غنى عن كل أنواع النساء ، ولكنها جاءته وجلست بجانبه فى بساطة وبين شفتيها ابتسامة حلوة خجولة مهذبة كأنها تعرفه منذ زمان طويل .. وكأنه سيدها .. وبدأت منذ أول لحظة فى خدمته .. انها تفرش الفوطة فوق ساقيه الممدودتين تحت المائدة ، ثم تعرض عليه أطباق الطعام طبقا طبقا .. ثم تقدم له أنواع الكؤوس ليختار منها .. ثم ترفع فوطة وتمسح قطرة من المشروب علقت بجانب شفتيه .. ولكنها لا تتكلم .. وهو لم يتحقق بعد من مستوى جمالها ولم يكتشف سيولة شعرها الناعم الطويل ولا لون عينيها كأن بينهما نجمة تلمع فى سواد ليل جميل .. ولكنه يتكلم .. انطلق بكل طبيعته الثرثارة يتكلم .. وهى لا تقاطعه .. ويسألها ولا تجيب .. انها لا تفهمه .. انه يتحدث إليها بالانجليزية وهى لا تعرف الانجليزية .. لا تنطق بأى لغة إلا لغتها الكورية التى لا يعرف منها كلمة .. ورغم ذلك انطلق يتكلم فى صوت لا تسمعه إلا باولاتاو .. وهو سعيد .. ان يتمتع بكل شهوة الكلام .. وهى لا تضيق ولا تقاطعه ولكنها بين الحين والحين تمد العصى الرفيعة التى تستعمل فى تناول الطعام بدلا من الشوكة ، وتلتقط بها بعض الطعام ثم ترفعه إلى شفتيه .. انها تناوله الطعام فى فمه .. ويأكل ثم يعود يتكلم وكل كلامه ينعكس كابتسامة حلوة على شفتيه دون أن تفهم شيئا مما يقول .. حتى عندما بدأ العرض الذى يقدمونه هناك .. موسيقى كورية لا تزال محتفظة بكل أصالتها بعيدا عن الموسيقى الأمريكية .. ورقصات كورية كأنها خطوات ملائكة عدن إلى الدنيا عبر التاريخ الفنى القديم حتى خلال هذا العرض لم يكف عن الكلام وهى لا تزال ملتفتة بكلها إليه تناوله ابتسامتها الحلوة وقطعا من الطعام ورشفات من الشراب ..

والسهرة انتهت .. وهو قد استعاد كل متعته بنفسه .. ان باولاتاو

منحته أسعد لحظات عمره .. منحته حق أن يعيش بطبيعته دون أن يحس بأنه يثقل عليها ودون أن يبدو عليها الضيق بهذه الطبيعة الثرثارة .. وهو يريد أن يلقاها مرة ثانية .. وأخذ يشير إليها بيديه وأصابعه كأنه يتحدث إلى طرشاء خرساء لتفهم أنه يحدد لها موعد لقاء .. ولعلها فهمت ما يريد أن يقول فأشارت له إلى شخص يقف بعيدا وكان يقوم بمهمة الاشراف على الحفل . وفهم أنه يجب أن يتفاهم مع هذا الرجل على ما يريد .. وأشار يدعو الرجل فجاءه منحنيا فى أدب وقال له مصطفى بالانجليزية أنه يريد أن يلتقى غدا مع باولاتاو خارج بيت الكيسنج .. واستأذنه الرجل دقيقة واحدة ثم اختفى خارج البهو وعاد بسرعة ليقول له أن باولاتاو ستلحق به الليلة فى غرفته بالفندق .. ودهش مصطفى .. كان كل ما يريده أن يلتقى بها غدا ليصحبها فى الطواف بالمدينة .. ويتكلم .. ولكنهم كرماء انهم يعطون كل شىء .. أو لعلهم فهموا أن هذا ما يريده مصطفى .. وابتسم فى سعادة .. ستقضى باولاتاو الليلة معه .. إنه منذ أيام زوجته سعاد لم ير امرأة فى فراش .. ولن يعترض العضو المنتدب ولا السكرتير العام .. لعل كلا منهما سيكون هو الآخر فى انتظار امرأة تلحق به فى الفندق ..

وجلس فى غرفته ينتظرها ولم تتأخر كثيرا .. جاءت على خفر وهى لا تزال مرتدية الثوب الوطنى الهفهاف الواسع الذى يضيق بحزام تحت نهديها .. وهو يتكلم منذ دخلت .. وهى تخدم .. انها تساوى الفراش الذى سينام عليه .. ثم تخلع عنه بدلته .. ثم تنحنى على الأرض وتخلع عنه حذاءه .. وتتكلم بإشارات يديها .. هل يريد أن يغسل قدميه .. ويضحك .. لا .. هذا كثير .. ثم ينطلق فى الكلام .. حتى وهو فى الفراش يتكلم .. وهى لا تقاطعه ولا تضيق به ولا تريد أن تنام وابتسامتها ترد على كلامه إلى أن نام هو .. ولعلها نامت بعده ..

لا يدرى .. فعندما استيقظ فى الصباح وجدها يقظة بجانبه تقول له من خلال ابتسامتها صباح الخير بلغتها الكورية ..

إنه يريدها أن تبقى معه ..

واستطاع أن يتصل ببيت الكيسنج ليسمحوا لها بالبقاء معه .. انه مستعد أن يدفع كل ما يطلبونه ولكن البيت أعفاه من الدفع .. وليس من التقاليد أن تأخذ الكيسنج أموالا من غريب .. لعل شركة تصدير الأسماك قد أدخلت أتعاب الكيسنج ضمن مصاريف البضاعة ..

وهو مع باولاتاو فى كل أوقات فراغه .. ويتكلم .. يتكلم بالانجليزية وأحيانا بالعربية ويتفاهم معها بالاشارة ويتضاحكان وهو يجعلها تنطق بعض الكلمات العربية .. وكانت أول كلمة تنطقها كلمة أحبك ..

وهو مندهش من نفسه .. كيف تعلق بها إلى هذا الحد .. هل يمكن أن يكون قد أحبها .. وهل يمكن آن يحب امرأة لا تفهمه ولا تتكلم لغته .. ربما كان هذا نوعا من الحب .. كأنه يحب كلبه .. ان هناك اناسا تحب الكلب حبا يتعلق بكل كيانهم .. والذى يحب كلبه لا يتكلم معه ولكنه يتكلم إليه ويستطيع مع الوقت أن يتفاهم معه ..

إن باولاتاو كلبته أو قطته أو عصفورته ..

وهو يحب كلبته ..

لا يستطيع أن يستغنى عنها ..

ولم يبق إلا يومان وتنتهى مهمة الوفد المصرى .. سيسافرون عائدين إلى مصر .. ولكنه لا يستطيع أن يترك باولاتاو .. إنه يتمنى ولو أسبوعا آخر معها .. واستطاع فعلا أن يقنع العضو المنتدب بأن يتخلف عن الوفد ويبقى أسبوعا آخر .. إن هناك بحثا اقتصاديا يريد دراسته .. وضحك العضو المنتدب .. إنه يعلم لماذا يريد أن يبقى مصطفى أياما أخرى .. ووافق .. وبقى مصطفى مع باولاتاو ..

ولكن هذه الأيام أيضا مضت ..

وهو لم يعد يستطيع أن يستغنى عن باولاتاو ..

ولا يستطيع أن يستغنى عن كلبته ..

سيأخذ كلبته معه إلى مصر ..

كيف .. ؟

ليتزوجها ..

كيف يتزوج من بنات الكيسنج .. لا يهم .. ان مصر لا تعرف شيئا عن بنات الكيسنج .. ولا أحد يعرف باولاتاو .. ثم إن مصر مليئة ببنات يستقبلن الضيوف العرب ويرقصن لهم ويقمن لهم الحفلات ولا يسمين أنفسهن كيسنج ولكن يسمين أنفسهن بنات عائلات ..

وكان يقضى نهاره وليله وهو يفكر بصوت مسموع .. وأفكاره المسموعة تنعكس ابتسامة على شفتى باولاتاو .. وأخيرا عرض عليها بالاشارة أن تتزوجه .. أكثر من نصف ساعة وهو يشير بأصابعه ويرتل موسيقى الزفاف حتى فهمت أنه يعرض عليها الزواج .. وانطلقت فرحتها وانحنت تقبل قدميه .. وأشارت إليه بأنه يجب أن يستأذن بيت الكيسنج .. يا كلبتى العزيزة انك ستكونين أسعد كلبة فى مصر ..

ووافق بيت الكيسنج على الزواج ..

أعفيت باولاتاو من تقاليد الكيسنج وغدا يتم الزواج المدنى ..

وعادت معه إلى الفندق .. ولم تسقط تحت قدميه لتخلع عنه حذاءه كما عودته ولكنها وقفت أمامه وتعلقت بعنقه وقبلته قبلة طويلة كأنها تريد أن تستريح بين شفتيه بعد مشوار طويل ثم قالت بلغة انجليزية سليمة :

ـ انها مفاجأة لم أكن أتخيلها أبدا .. أتزوج .. وأعيش فى مصر .. و..

وقاطعها مصطفى صارخا :

ـ انك تتكلمين الانجليزية ..

قالت باولاتاو فى بساطة وقد أصبحت ابتسامتها الهادئة الخجولة ابتسامة مرحة مبسطة :

ـ نعم .. إنى أتكلم الانجليزية .. ان دراستى كانت بالانجليزية .. لقد درست الاقتصاد السياسى فى الجامعة .

وصرخ مصطفى وضربة المفاجأة تنطلق من عينيه :

ـ ولكنك لم تتكلمى .. الانجليزية أبدا من قبل .. لقد خدعتينى ..

وقالت باولاتاو وهى تنظر إليه فى دهشة :

ـ لم أخدعك .. ولكنك كنت معى وأنا امرأة من الكيسنج .. وتعاليم الكيسنج لا تسمح لنا بأن نتكلم أى لغة أجنبية حتى نحتفظ بالأصدقاء فى جو كورى صرف حتى نحيطهم بالاحساس بكوريا .. وقد أخذتنى من الكيسنج .. لم أعد مقيدة بهذه التعاليم ..

وعاد مصطفى يصرخ :

ـ لماذا لم تقولى لى ذلك من قبل ..

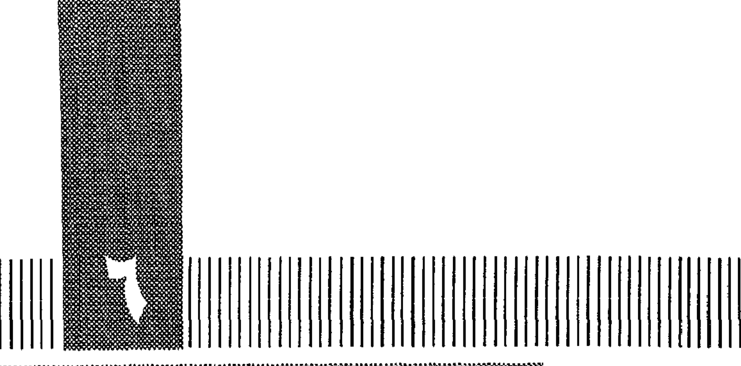
قالت باولاتاو وهى تنظر إليه كأنه جن :

ـ لم تسألنى .. ولو سألتنى لكذبت عليك .. إن مهمتى كانت أن أعيش معك كفتاة من كوريا القديمة قبل أن تدخلها أى لغة أجنبية .. والآن ياحبيبى مصطفى .. لقد كنت أشفق عليك من كثرة الكلام .. كانت التعاليم تمنعنى من أن أشاركك كلامك .. أما الآن فسأريحك من مهمة الكلام .. لن تتحمل المسئولية وحدك .. سأتكلم أكثر منك حتى أكفر عن ذنبى .. يازوجى العزيز ..

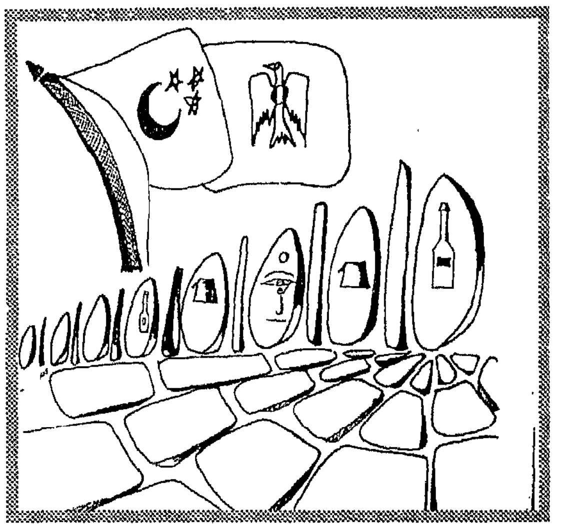
وارتفع صوت مصطفى يصرخ :

ـ لا .. لا .. لست زوجك .. لن أتزوجك .. ابعدى عنى .. ابعدى ..

ثم انطلق خارجا من الغرفة وجرى إلى مكتب شركة الطيران ليحجز مقعدا له إلى مصر .. مقعد واحد له وحده ..



٦



الزجاجات الفارغة...

الزجاجات الفارغة

جلس الأستاذ إبراهيم أبو طالب فى مكتبه منتظراً وصول الأستاذ طلعت مهران وهو هائم فى ذكرياته من خلف ابتسامة.

كل لمحة من وجهه تبتسم .

لقد مضى أكثر من عشرين عاما يلتق خلالها بطلعت لقاء خاصا.. كانا لا يلتقيان إلا فى المناسبات أو لقاء الصدف وكل منهما يكتفى بما يسمعه عن الآخر.. وقبلها مضى أكثر من ثلاثين عاما وهو يلتقى بطلعت كل يوم.. منذ كانا فى المدرسة الثانوية ثم فى الجامعة ثم بعد أن تخرجا وهما كأنهما أخوان يجمع بينهما دائما فكر واحد وإن اختلفا فى المزاج.. كان الفكر الذى يجمعهما هو الفكر السياسى.. والمزاج الذى يفرقهما هو أن إبراهيم أكثر تحررا اجتماعيا بينما طلعت أكثر تزمتا ..

وقد أدى بهما فكرهما السياسى إلى الثورية وهما لا يزالان طالبين.. كانا قد بدآ بمحاولة الاقتناع بالنظام السياسى القائم فى مصر.. حاولا الاقتناع بالنظام الملكى ومرت بهما أيام فى الثلاثينيات هتفا خلالها باسم الملك فاروق بالدستور واشتركا فى عام ١٩٣٥ فى مظاهرات شعبية عنيفة تطالب بفرض دستور ٢٣.. وحاولا الاقتناع بالاحزاب.. انضما إلى شباب حزب الوفد وهتفا لمصطفى النحاس

باشا.. ثم تبخر اقتناعهما بالوفد وانضما إلى حزب السعديين وهتفا باسم أحمد ماهر.. ثم تبخر اقتناعهما بحزب السعديين وبدأ يترددان على التنظيمات السياسية يبحثان عن نفسيهما فى كل منها.. الاخوان المسلمون.. والحزب الشيوعى.. ومصر الفتاة.. و..و .. وهما فى كل ذلك لا يحملان فى فكرهما السياسى إلا تصورهما لمستقبل مصر.. مستقبل بلا احتلال أجنبى وبلا فقر وبلا ظلم.. وقد انتهيا بفكرهما إلى أن هذا المستقبل لا يمكن أيبدأ إلا بهدم الحاضر كله.. هدم النظام القائم وهدم الاحزاب والتنظيمات القائمة.. هدم كل ما هو قائم ..

وأدى بهما رفضهما لما هو قائم إلى أن عاشا فترة يتحركان سياسيا وحدهما.. يقولان رأيهما لا رأى أحد آخر.. ويكتبان منشورات سياسيةسرية ويستعينان بأصدقائهما الطلبة لتوزيعها.. وقد قبض البوليس السياسى على إبراهيم مرتين وقبض على طلعت خمس مرات.. فقد كان طلعت أكثر تفرغا لفكره ونشاطه السياسى ..

إلى أن بدأ ظهور حزب «مصر الحرة».. كان حزبا يرفض الماضى والحاضر ويمثل المستقبل وكل من فيه ليس له صفة سابقة .. ليس بينهم وزير سابق أو عضو سابق فى حزب من الاحزاب.. كل صفتهم هى البحث عن المستقبل ..

وانضم إبراهيم وطلعت إلى الحزب الجديد الذى استطاع بتطرفه الوطنى وجرأة مطالبه السياسية ونشاط تنظيماته أن يصبح قوة ثورية خطرة.. واستطاع طلعت أن يبرز كشخصية سياسية داخل الحزب.. أصبح اسما معروفا شعبيا. أما إبراهيم فإن مزاجه المتحرر لم يجعله يتفرغ كل هذا التفرغ للحزب انما بقى مكتفيا بأنه مع طلعت فى فكره السياسى وفى جانب من نشاطه..

وقامت ثورة الضباط الاحرار ..

ومع كل التطورات التى أعقبت الثورة ضاع حزب «مصر الحرة»

مع بقية الاحزاب والتنظيمات السياسية التى كانت قائمة.. وقرر إبراهيم أن يعزل نفسه عن نشاطه السياسى وتزوج وأنجب ابنه مصطفى وابنته نهى.. ولم يتوقف فكره السياسى ولكنه أصبح يختزنه ولا يعبر عنه.. وربما كان هذا هو ما أبعده عن صديق العمر طعلت مهران.. فطلعت لم يتوقف نشاطه السياسى ولكنه استطاع أن يبقى دائما شخصية سياسية محترمة من رجال الثورة ولو انهم يعرفون انه لا يتجاوب معهم تجاوبا كاملا ، وكانوا أحيانا يستعينون برأيه، وفى فترة قبل أن يكون عضواً فى مجلس الأمة بل انه قبل فترة أخرى أن يكون وزيراً دون أن يعرض نفسه للاسفاف السياسى.. بقى دائما نظيفا متعاليا محترما.

وجاء طلعت مهران وهب إبراهيم أبو طالب يحتضنه كأنه يحتضن شباب عمره.. وانطلق كل منهما يعيش ذكرياته إلى أن افاق إبراهيم من دخان الذكريات وبدأ ينتظر أن يفاتحه طلعت بسبب هذه الزيارة بعد هذا العمر الطويل ..

وقال ابراهيم كأنه يقاطع طلعت فى استرساله مع ذكرياته :

ـ فوجئت بك تسأل عنى وتمنيت خيرا ..

وقال طلعت ضاحكا :

ـ كما هى عادتنا منذ صبانا يشدنا الفكر السياسى احدنا إلى الآخر وقد شدتنى إليك فكرة .. فكرة سياسية طبعا ..

وقال ابراهيم فى دهشة :

ـ لقد تعودنا أن نعيش احداثا سياسية ولم نعد نعيش أفكارا سياسية ..

وقال طلعت فى حماس :

ـ لقد جاء اليوم الذى نسترد فيه حقنا فى الفكر السياسى ..

وقال ابراهيم وهو لا يزال فى دهشة :

ـ كيف ..

وقال طلعت وقد ارتفعت درجة حماسه :

ـ من حقنا اليوم أن نعيد تشكيل حزبنا .. حزب مصر الحرة .. وقد جئت إليك لتعود كما كنت عضوا فى اللجنة التأسيسية للحزب ..

وسكت ابراهيم برهة ثم قال وهـو يدقق النظر فى وجه طلعت كأنه لا يفهمه :

ـ هل استأذنت ..

وقال طلعت فى استهجان كأنه يرفض هذا السؤال :

ـ استأذنت من ؟

وقال ابراهيم فى بساطة :

ـ هل استأذنت الدولة ..

قال طلعت محتجا :

ـ ما دخل الدولة فى هذا ..

وقال ابراهيم فى هدوء :

ـ إن الدولة لا تزال هى دولة ثورة ٢٣ يوليو .. وقد ألغت دولة الثورة الاحزاب ولا يمكن أن تعود الأحزاب إلا إذا سمحت بها الدولة أى ثورة ٢٣ يوليو

وقال طلعت وقد استعاد هدوءه :

ـ لا تحصر فكرك فى هذه الشكليات الرسمية .. وأنت تعرف أن ثورة ٢٣ يوليو أخطأت فى تفسير وتشكيل نفسها فالضباط الأحرار لم يخلقوا الثورة ولكنهم كانوا القوة التنفيذية للثورة التى قررتها أحزاب وهيئات مدنية أى قررها الشعب .. الضباط الأحرار كانوا سلطة الجيش والجيش سلطة تنفيذية .. أى أن الجيش ـ مثلا ـ ليس من حقه أن يعلن الحرب ولكنه السلطة التنفيذية التى تنفذ قرار الحرب .. والثورة كالحرب يجب أن يبقى الجيش بالنسبة لها سلطة

تنفيذية ولا يجمع فى نفسه كل السلطات كما حدث فى ثورة ٢٣ يوليو.. وقد عجزنا أيامها عن أن نضع الثورة فى وضعها الطبيعى ونعيدها إلى السلطة التى اتخذت القرار ولا نتركها فى يد السلطة التى نفذت القرار .. والآن .. وبعد كل هذه السنوات الطويلة إستطعنا أن نضع الثورة فى وضعها الطبيعى .. وعودة الأحزاب الثورية القديمة إلى فكرها ونشاطها السياسى هى عودة ثورة ٢٣ يوليو إلى وضعها الطبيعى ..

وقال ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة مسكينة كأنه يترحم بها على الماضى :

- إننا عندما اقمنا حزبنا .. حزب مصر الحرة .. لم يكن أحد قد طلب منا إقامته ولم نستأذن أحدا لاقامته .. كانت فكرتنا .. وكانت إرادتنا .. لا فكرة ولا إرادة الدولة .. والدولة سبق أن ألغت الأحزاب وعادت الدولة بعد خمسة وعشرين عاما وسمحت بإقامة الأحزاب .. وبهذا لا يمكن أن تسمى أحزابا سياسية إنما تسمى مؤسسات سياسية أو دوائر سياسية أو مصلحة سياسية كباقى المصالح الحكومية ..

وارتفع صوت طلعت وهو يقول فى حدة :

- إننا حتى عندما أقمنا الحزب قبل الثورة كان يجب أن نبلغ وزارة الداخلية أى الدولة حتى تسمح لنا بحرية الاجتماعات .. ولماذا لا تسأل نفسك عن السبب الذى دفع الدولة إلى السماح بإقامة الأحزاب السبب هو انها تستجيب لتيار شعبى لم يعد يطيق الحكم الفردى ولا الحزب الواحد .. أى أن الدولة لا تشرع الأحزاب ولكنها تنفذ إرادة شعبية بإقامة الأحزاب .. ثم لماذا نتمسك بهذه الأشكال الرسمية سواء كان قد طلب منى إقامة الحزب أو كان على أن أستأذن فى إقامته فالمهم هو ما أريده أنا .. هل أريد أن أعيد حزب مصر الحرة

أم لا أريد فاذا أعدته فما دخل الدولة به .. انى حر بالحزب بعد ذلك ..

وقال ابراهيم دون أن يفقد هدوءه :

ـ إن الدولة تشترط شروطا لإقامة الأحزاب .. وصاح طلعت :

ـ ومتى لم تكن هناك شروط .. هل كنا زمان نستطيع أن نعلن أن حزب مصر الحرة هو حزب شيوعى أو حزب جمهورى ..

وقال ابراهيم بسرعة :

ـ ولهذا كنا ثوارا وكنا نريد الثورة لنطلق الحريات ومن بينها حرية إقامة حزب شيوعى أو حزب جمهورى ..

وقال طلعت وقد بدأ صوته يهدأ كأنه مصمم على اقناع ابراهيم :

ـ كن ثائرا كما كنت .. وأنا أعلم انك لست شيوعيا أولست ملكيا فتعال معى نعيد إقامة حزبنا ونسعى به إلى إطلاق الحريات ومن بينها تكوين الحزب الشيوعى والحزب الملكى ..

وقال ابراهيم وبين شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ لن نستطيع شيئا ..

وقال طلعت فى غيظ : لماذا ؟

وقال ابراهيم : لاننا لن نكون أبدا قوة ..

وعاد طلعت يصرخ فى غيظ :

ـ لماذا لن نكون قوة ..

وقال ابراهيم وهو أشد سخرية :

لأن الدولة إذا سمحت بتعدد الأحزاب فليس معنى هذا إنها تسمح بتعدد القوى بحيث تهدد كل قوة الأخرى .. لن يكون هناك أبدا إلا قوة واحدة .. قوة نظام الحكم القائم ..

وقال طلعت فى قرف : عدنا نتمسح فى الدولة ..

وقال ابراهيم :

ـ هذا ما سبق أن حدث بعد أن سمح بتعدد الأحزاب فقد كان حزب

الـوفـد يمكن أن يمثل قـوة وكـان الشيوعيـون يمكن أن يمثلـوا قـوة فقضى على القوتين بقرار .. بكلمة ..

وقال طلعت وهو يزفر أنفاسه فى ضيق :

ـ لقد كان الـوفد والشيوعيون يمثلان اتجاهات ممنـوعة ومحرمة سياسيا أما نحن فاتجاهنا السياسى معترف به ..

وقال ابراهيم فى هدوء :

ـ مـن ضمن الاتجاهات الممنـوعة والمحـرمة هـو الاتجاه إلى تعدد القوى السياسية .. أقصد القوى الشعبية ..

وقال طلعت وهو يزفر أنفاسه :

ـ لنجرب ..

وقال ابراهيم وكأنه بدأ يبتعد بفكره :

ـ نجرب ماذا ؟

وقـال طلعت : نجرب أن نكـون قوة شعبيـة يمكن أن نصل بها إلى الحكم .. ولا يهم إذا استطاعت الدولة أن تقضى علينا ..

وقال ابراهيم :

ـ هـذا عبء كبير لا أستطيعه لا أنـا ولا أنت بعد أن وصلنـا إلى هذه السن ..

وقال طلعت وغيظه يشتد :

ـ إن فؤاد سراج الـدين الذى حاول كما تقول أن يكـون قوة وصل إلى السبعين من عمره ..

وقال ابراهيم وهو يهز كتفيه بلا مبالاة :

ـ لهذا كان من السهل إلغاء وجـوده دون أن يتحرك أحد لنجدته .. كانت قوته قوة ذكريات العجوز لا قوة واقع الشباب .

وعاد صوت طلعت يـرتفع محتدا: حدثنى بصراحة .. هـل تريد أن تعود للحزب أم لا تريد ..

وقال ابراهيم وهو يفتح عينيه كأنه يريد أن يواجه طلعت بالحقيقة:

— بصراحة إن الحزب لايمكن أن يعود.. تذكر كيف كنا عندما اقمناه.. كنا شبانا كل خلجة من خلجاتنا تنبض بحرارة الشباب وقوة اندفاع الشباب.. وكنا ثوارا.. كان الحزب ثورة.. حزب يرفض الواقع ويرفض كل ما هو قائم.. والآن .. اين شبابنا.. ولى.. ثم اننا اليوم لا نؤمن بثورة ولا نتطلع إلى ثورة.. اننا نعيش الواقع بكل كياننا وكل فكرنا ومهما كان لنا من معارضة أو نقد فهى مجرد معارضة ونقد وليست ثورة.. فكيف تريد إعادة الحزب .. من الاكرم لنا أن نحتفظ بذكرياته على أن نعيده جثة..

وصاح طلعت غاضبا :

— لاتحكم على بما تحكم به على نفسك.. انا لست عجوزا حتى وأنا فى الستين.. ان تيتو لا يزال يقود ويحكم ثورة من أقوى ثورات الانسانية رغم انه تعدى الثمانين من عمره .

وقاطعه ابراهيم :

— لو أن تيتو حاول أن يبدأ ثورته من جديد الآن لما استطاع ولكنه يستعيد قوته من قوة استمرار الثورة واستمرار التنظيم واستمرار الحزب.. وكذلك أنور السادات فهو أيضا يعتمد على قوة الاستمرار.. لم يمر بمرحلة موت سياسى كما مررنا نحن وحزب مصر الحرة .

وقال طلعت فى عصبية :

— إن سعد زغلول بدأ الحزب وهو فى الستين .

— إن سعد زغلول لم يبدأ حزبا ولكنه بدأ بهيئة مفاوضات ولذلك سميت الوفد المصرى وبلا تعمد من سعد زغلول انطلقت ثورة ١٩ وانقلبت هيئة المفاوضات إلى حزب .. لولا الثورة لما استطاع سعد

زغلول بعد هذا العمر أن يبدأ فى إقامة حزب.. نحن عواجيز السياسة ياطلعت..

وصاح طلعت :

— هذا رأيك فى نفسك أما أنا فما زلت أعيش كل شبابى السياسى.. ثم من قال لك أن شرط قيام الحزب هو أن يكون حزبا ثوريا.. هل كل حزب فى العالم هو حزب يدعو إلى الثورة أو حزب يرفض الواقع .. لماذا لا نكون مجرد حزب معارضة.. معارضة بناءة.. أى نشترك فى البناء.. ونفيد بأفكارنا وتجاربنا ومستوانا فى الازمات التى يعيشها الشعب.. أزمة الفقر.. ازمة المواصلات.. أزمة التليفونات.. هذه هى المهمة الوطنية الأولى ..

وقال إبراهيم فى هدوء :

— هذه مهمة الدراسات الجامعية أو المجالس المتخصصة أو اللجان البرلمانية وليست مهمه الاحزاب ..

وقال طلعت وهو يقهقه ساخرا:

—مهمة الاحزاب فى رأيك هى الثورة.. اليس كذلك ..وقال ابراهيم الهادىء :

— المهمة الاساسية للحزب هى الوصول إلى الحكم حتى يحقق أهدافه التى قام من أجلها سواء وصل إلى الحكم بثورة أو عن طريق دستورى.. وأنا شخصيا لا أريد أن أصل إلى الحكم ..

وقال طلعت وهو ينتفض واقفا :

— أنت ميئوس منك.. سلام عليكم..

وقال ابراهيم وهو يقوم محييا ضيفه :

— أنا اعتبر نفسى قد أصبحت من جيل المتفرجين.. والمتفرجون أكثر جرأة فى ابداء رأيهم دائما ذخيرة المسرح التى تحدد مصيره.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. لاتنس شبابنا..

وجلس الاستاذ ابراهيم أبو طالب هائما وقد عادت إليه كل ذكريات شبابه السياسى من خلال ابتسامته الواسعة ودخل إليه ابنه مصطفى أبو طالب وهو شاب فى الثانية والعشرين من عمره طالب فى السنة النهائية بكلية الهندسة وقال مصطفى فى لهفة :

— هل كان عندك طلعت مهران.. وقال ابراهيم وابتسامته تملأ كل وجهه :

— نعم.. انه صديق قديم وقد سبق أن حكيت لك عنه..

وقال مصطفى الملهوف :

— لقد نشرت الصحف انه سيقيم حزبا سياسيا.. هل عرض عليك الانضمام إلى هذا الحزب.. وهل قبلت .

وقال ابراهيم وهو يستريح من ابتسامته :

— عرض .. واعتذرت ..

وتساءل مصطفى فى دهشة كأنه لا يصدق :

— لماذا ..

وقال ابراهيم وهو يهز رأسه كأنه نادم على حاله :

— لأنى لا اعتقد أن الاحزاب يمكن أن تقوم على الكلام وأنا لم أعد استطيع إلا الكلام .

وقال مصطفى :

— ولكنك كنت معه فى الحزب القديم ..

وقال ابراهيم :

— كان هذا أيام الشباب.. وقد كنت فى شبابى امارس رياضة المصارعة ولكنى اليوم اكتفى بالفرجة عليها فى التلفزيون.. كذلك حالى مع التنظيمات السياسية .

وسكت مصطفى طويلا وهو يقلب فى صفحات كتاب ثم انطلق قائلا :

— بابا.. انى أفكر فى الانضمام لحزب .

ورفع إليه إبراهيم عينيه كأنه فوجىء ثم قال وهو يدير عينيه عنه:

— أنت حر.. ولكن لا تأخذ رأيى .

وقال مصطفى فى عتاب :

— لماذا تريد أن تحرمنى رأيك ..

— وقال إبراهيم :

— حتى لا أتحمل معك المسئولية ..

وقال مصطفى وقد اشتدت لهجة عتابه :

— لكنك ابى ..

وقال ابراهيم دون أن يرفع عينيه إلى ابنه :

— هذا رأيى ..

وصاح مصطفى :

— لماذا.. لماذا.. أريد أن أفهم .

ورفع إبراهيم عينيه إليه وقد بدأ صوته يخفت تحت رنة حنان :

— اسمع يا مصطفى.. لأنك ابنى لا استطيع أن أعطيك رأيا حرا كاملا.. إن فكرى فيما يخصك مقيد بارتباطى بك بإحساس الابوة ومسئولية أبوة.. فإذا سألتنى أى حزب سياسى تختار فان تفكيرى سينحصر فى مصالحك الخاصة المرتبطة بمستقبلك.. سأقدر مدى تأثير اشتغالك بالسياسة على استعدادك لامتحان البكالوريوس.. وساقدر أن اشتغالك بالسياسةقد ينتهى بك إلى السجن.. أو قد يحرمك من الوصول إلى وظيفة محترمة بعد تخرجك.. فإذا نصحتك بعد ذلك فقد انصحك بالانضمام إلى الحزب الحاكم الذى يضمن لك مستقبلا عمليا ثابتا مع انى لست مقتنعا بهذا الحزب .. ونحن كذلك لم نكن فى شبابنا نستشير آباءنا فى نشاطنا السياسى.. بل كنا فى الوقع نتحدى آباءنا وكان هذا التحدى ارحم عليهم لانه يعفيهم من

مسئـوليتنا.. فعنـدمـا كنت ادخل السجن كنت أدخل على مسئـوليتى وأترك أبى يتهمنــى بالهوس وهذا أخف عليـه من أن يتهم نفسه بـأنه شاركنى فيما أدى بى إلى السجن.. وهذه يـا ابنى هى طبيعة الاجيال.. كل جيل يحمل مسئولية نفسه ويبنى لنفسه ويفكر لنفسه ..

وقال مصطفى فى سخط :

— يابابا لقد تغيرت الدنيـا.. لم يعد مابينى وبينك هو ما كان بينك وبين المرحـوم جـدى.. إننـا لسنـا أبا وابنـا.. اننـا أصـدقـاء.. هكـذا عودتنى..

وقال إبراهيم ضاحكا :

— تغيرت المظاهر.. كنت أقبل يد أبى وقد أعفيتك من تقبيل يدى.. ولكن احسـاسى بك كان هـو نفس مستـوى احساس أبى بى .. أمـا الصداقة فهى مجرد أسلوب فى التربية اخترته لك .

وقال مصطفى وهو جاد لا يريد أن يضحك :

— بهذا الأسلوب أريد أن أسمع رأيك.. رأى الجيل القديم ..

وقال إبراهيم وهو يبتسم له كأنه يخفف عنه :

— لـو انك نضجت نضـوجا سيـاسيـا كامـلا لما احتجت إلى رأى الجيل القـديم.. ان آراءنـا وصلت بنـا إلى عـالم المستحيل.. اسمع يـا مصطفى يــا ابنى.. إن كل جيـل يبـدأ من مستحيـل وينتهى إلى مستحيل.. وقد بدأنا نحن من مستحيل استطعنا أن نتخطاه وأن نهدم النظـام الـذى كـان قـائما.. هـدمنـا المجتمع السيـاسى والاجتماعى والاقتصادى وبنينـا مجتمعا جـديدا إلى أن وصلنـا نحن بهذا المجتمع إلى مستحيل آخـر .. مستحيل بـالنسبـة لنـا.. لم تعـد آراؤنـا تصلح لتخطى هذا المستحيل .. مستحيل من نـوع جديد فى حاجـة إلى عقول جديدة.. وروح جديدة.. فى حاجة إلى الجيل الجديد..

وقال مصطفى كأنه يتعجل الوصول إلى ما يريد أن يقول :

— على كل حال انى أعرف رأيك مقدما ولعلك لا تمانع إذا قلت لك رأيى .. وقال إبراهيم مبتسما وكأنه يزهو بابنه :

— لا.. قل..

وقال مصطفى فى جدية :

— انى أفكر فى الانضمام إلى حزب اسلامى..

وصاح إبراهيم كأنه لدغ :

— لا .. مستحيل.. هذا ممنوع.. ان القانون يحرم قيام احزاب تستغل الدين..

وقال مصطفى وهو يخبط على حافة مقعده بكفه :

—هذا ليس مجرد قانون انه رأى ومن حقى أن أرفض هذا الرأى.. ولا أدرى لماذا نرفض الملحدين بالدين كقاعدة سياسية كالشيوعيين ثم نرفض أيضا المؤمنين بالدين.. ولماذا نطلق حكما عاما على كل من يفكر فى قيام حزب باسم الدين ونسميهم استغلاليين.. قد يكون بينهم استغلاليون فعلا ولكن بينهم أيضا مؤمنون بأن الدين هو الملهم الأساسى لتخطيط قيام الدولة.. ثم إن أخطر عدو يهددنا اقامة دولة دينية عنصرية.. اسرائيل.. وبلغ من فرط اصراره على فرض تعاليم دينه أن جعل الرئيس الأمريكى كارتر يستشهد فى خطبه بالتوراة .

وجعل التوراة كأنها وثيقة عقود عقارية فكل إشارة فيها إلى قطعة أرض تصبح من حق اليهود.. وقال الأب فى أسف كأنه يرثى عقلية ابنه:

— وأنت تريد أن تجعل من مصر دولة عنصرية ..

وقال مصطفى منطلقا فى حماسه :

— لا.. إذا قام حزب اسلامى فيجب أن يقوم حزب مسيحى.. كالحزب الديمقراطى المسيحى فى إيطاليا..

وقال إبراهيم فى مرارة:

— وحزب يهودى أيضا .

وقال مصطفى متحديا :

— إذا لم يكن مـرتبطـا بــاسرائيل أو يتلقى تعليمات اسرائيل كما تتلقى الاحزاب الشيوعية تعليمات موسكو .

وقال الأب وهو يشد أنفاسه كأنه يستعين بالله .

— يـا ابنى.. ان الدين دعـوة .. ومهما شمل من قـواعد ومبـادىء دنيوية فهـو دعوة.. الذين يتولون أمـر الدين هـم دعاة.. وذلك يختلف عن الحزب.. ان الحزب هو هيئـة تحكم أو تسعى إلى الحكم واعضاؤه حكـام وليسـوا مجرد دعـاة.. انظر إلى السعـوديـة انها أكثـر الـدول الاسلامية استكمالا لقواعد وتعـاليم الاسلام ورغم ذلك فا لمسئولون عن الـدعوة فى شكل جماعـة هى جماعة الأمـر با لمعـروف والنهى عن المنكر .

ورد الابن بسرعة قائلا :

— لو قام فى السعودية نظام تعدد الاحزاب لاصبحت جماعة الأمر با لمعروف والنهى عن المنكر حزبا سياسيا.. حزب الدولة .

وقال الأب فى أسى :

— لا أظن.. وانى أقـدر ما يؤدى بك وكثير من أبنـاء جيلك إلى مثل هذه الاتجاهات ..

وقال الابن وكأنه لا ينتظر من ابيه رأيا يقنعه :

— ماذا ؟

وقال الأب :

— الفراغ.. الفـراغ السياسى.. لقـد ولدتم ونشأتم وليس أمـامكم ولا فى بلدكم كلها إلا شـخصية سياسية واحدة وهى جمال عبدالناصر وليس لكم من مأوى سيـاسى إلا تنظيم سيـاسى واحد كـان يسمى

شخصية أخرى يلجأ إليها وتضمه إلى جماعتها.. لا يجد إلا الله.. ويتفرغ للدين.. ثم يحاول أن يجد فى الدين تنظيما سياسيا يغنيه عن الاتحاد الاشتراكى ثم يبحث لهذا التنظيم عن شخصية تغنيه عن جمال عبدالناصر .. هذا

ما حدث لكم ..

وسكت مصطفى برهة ثم قال :

— ربما.. فقد تفرغت للدين أكثر بعد أن فقدت ثقتى بعبدالناصر.. كنت اتقرب إلى الله لعله يهدى عبدالناصر .

— وقال الأب وقد بدا ظل ابتسامة على شفتيه كأنه يأمل فى أن يقنع ابنه :

— اذن أنت مطالب الآن أن تنتظر .

وقال مصطفى فى لهفة :

— انتظر ماذا..

وقال الأب وقد اتسعت ابتسامته :

— تنتظر التجربة الجديدة.. تجربة تعدد الأحزاب وتعدد الشخصيات لعلها تنتهى بك إلى رأى آخر وتصور جديد لما يجب أن تكون عليه. وسكت الابن برهة طويلة ثم قال :

— أنت على حق.. سأنتظر.. اتدرى أين سأنتظر .. سأهاجر إلى أمريكا أو استراليا بعد أن احصل على الشهادة وانتظر هناك..

وقال الأب وقد عادت ابتسامته تنكمش :

—هذا اسوأ وأخطر ما تعلمتموه منا ..

وقال الابن ساخرا :

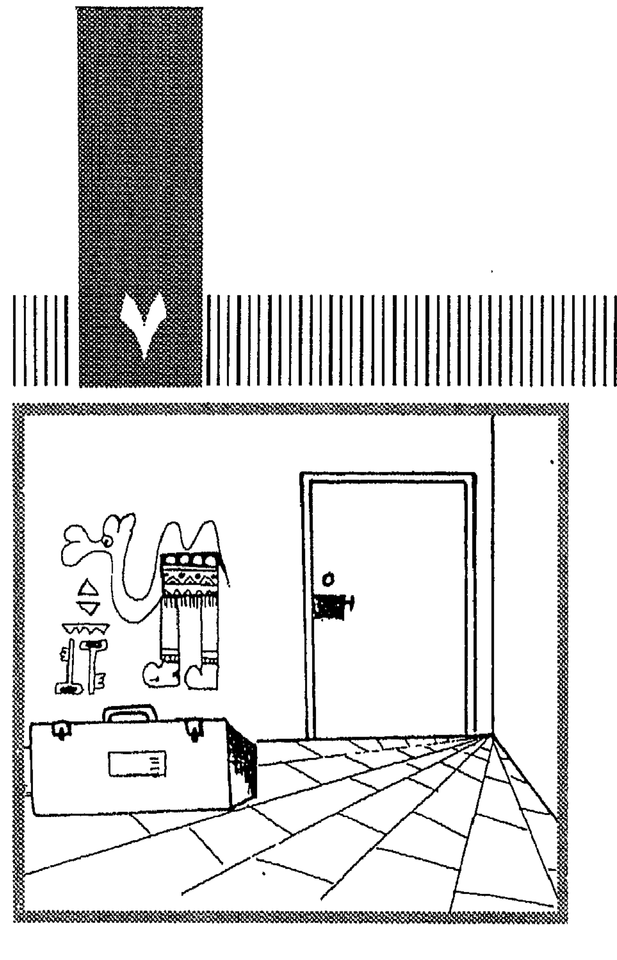
— ماذا علمتمونا أيضا :

وقال الأب وهو يحنى رأسه فى يأس:

— الهروب ..

تمت

٧



قبل أن تخرج

الحقيبة من الباب

قبل أن تخرج الحقيبة من البـــــاب .. ؟

كانت سميحة جـالسة على المقعد العريض فى غرفـة النوم تنظر إلى زوجهـا محمود كأنها تهم أن تخنقـه بعينيها وهى تجز على أسنـانها كأنها تقـاوم أن تقفز إليه وتعضـه فى عروق عنقـه حتى تشرب من دمه ..

ومحمود واقف أمام السرير وقد وضع فـوقه حقيبة مفتوحة يرتب فيها ثيـابه التى ينقلها من الـدولاب .. وهو هادىء .. يتعمد ألا تـواجه نظراته زوجته سميحة ..

ومد محمود يـده إلى الدولاب وأخرج قميصا حريـريا وردى اللون وهم أن يضعه داخل الحقيبة المفتوحة .. وصرخت سميحة :

ـ إلا هذا .. إن هذا القميص اشتريته لك بنفسى ولم أطالبك بثمنه .. دفعت أنا الثمن من مرتبى .. من فلوسى ..

وفى هدوء وبساطة رفع محمـود القميص قبل أن يضعه فى الشنطة وأعـاده إلى الـدولاب دون أن ينطق حـرفا .. وقـامت سميحـة واقفـة واقتربت منه وقـالت وقد خففت من صـوتها .. أصبح صوتـا ناعما .. وخففت من نظراتها .. أصبحت نظرتها متوسلة :

ـ هل تذكر يوم اشتريت لك هـذا القميص .. كنا سنسـهر ليلتها عند خديجة .. ويومـها مررت على مكتبى لنعود معا إلى البيت .. وفى الطريق

رأيت هذا القميص .. لونه .. هـذا اللون الوردى .. لون لم أره على رجل أريـد أن أراه عليك .. انـه سيبـدو أحلى وأزهى من سمـرتك .. ودخلت الــدكـــان دون أن تنتبـــه واشتريت القميص دون أن أســألك رأيك وخـرجت لأجـدك واقفـا على الـرصيف تبحث عنى بعينيك فى حيرة .. وعنـدما عـدت إليك كـدت تصرخ فى وجهى .. ولكنى أشرت إليك كأنى أحمل سرا خطيرا .. مفـاجأة .. لا تتكلم إلا أبعـــد أن نصل إلى البيت .. وعندما رأيت القميص كدت تطير من الفرحة وان كنت حاولت أن تبدو كأنك تفهم أكثـر منى فى القمصان وأذواق القمصـــان ، وأمضيت أكثر من نصف ســاعة وأنت تقلـب فى القميص وتلوى شفتيك ثم تفـردهما قبل أن تقبلنى وتقول لى مرسى ياسمح ..

ومحمود يتنقل بين الـدولاب والحقيبة المفتوحة فـوق السرير دون أن ينطق بكلمة ..

وعادت سميحـة وألقت نفسها فـوق المقعد العـريض واستطردت وبين شفتيها ابتسامة ضعيفة كأنها تتحسر بها على نفسـها :

ـ الحقيقة كنت يومها أريد أن أتعايق بك أمام خديجة فى سـهرتـها .. وأمـام كل من كـان هناك .. انى أحب دائما أن أتعـايق بك .. أن أزهـو بك..وفجأة عادت سميحة تصرخ وهى تنتفض فى جلستها :

ـ لن أسمح لامرأة أخرى أن تتعـايق بك وأنت ترتدى هذا القميص فاهم .. لن أسمح لك ..

وقال محمود فى هدوء :

ـ القميص فى الدولاب وسـأتركه لك ..

وقفزت سميحة واقفة واقتربت منه وهى تصرخ :

ـ قل من هى .. يجب أن أعرف ..

قال محمود :

ـ من هى من ..

وقــالت سميحة وهى تـرفع زجاجـة العطر التى كـان محمود قـد وضعها فى الحقيبة وتلقى بها على الأرض :

ـ المرأة الأخرى التى تطلقنى من أجلها ..

وقـال محمـود وهـو ينحنى فى هـدوء ويلتقط الـزجـاجـة من على الأرض:

ـ ليست هناك امرأة أخرى .. قلتها لك ألف مرة ..

قالت سميحة وهى تغطى عينيها بكفيها كأنها تحبس دموعها قبل أن تنطلق :

ـــ لن أصدقك ولـو قلتهـا مليون مـرة .. انى أعـرفك .. ان أضعف مـا فيك هو احسـاسك بالمرأة .. كل الأنـواع .. تحب أن تجرب كل من تعجبك حتى مع اختلاف مـا يعجبك فيها .. إذا أعجبك حـديث واحدة فأنت تريد أن تجرب كيف تنام هذه المتحدثة .. وإذا أعجبك طهو امرأة فأنت تريد أن تجرب هذه الطاهيـة فى الفراش .. حتى صديقاتى .. هل تظن أنى لا أدرى ما كـان بينك وبين نعمات .. الدكتـورة نعمات .. لقد بدأت بـإعجابك بها كطبيبة .. ولاحظـت أن إعجابك بها يتـزايد .. ربما تمنيت أيامها أن تعود طفـلا لانها طبيبة أطفال .. ثم عرفت انك التقيت بها فى شقة صديقك عثمان .. خديجة قالت لى .. هل تنكر .. اعترف ..

قال وهو يهز كتفيه فى برود :

ـ مادمت تعرفين فما حاجتك إلى اعترافى ..

وعادت سميحة تقول وهى تروح وتجىء بخطوات عصبية :

ـــ وقاطعت نعمات لتظهـر بعـدها مـرفت .. لقـد بدأ إعجـابك بها كمترجمة .. مترجمة كتب ومترجمة فـوريه إلى أن تـرجمت لك نفسهـا وجسـدها فى شقـة صديقك عثمان .. انك تنسى أن عثمان هـو ابن عم خـديجة وهـو يقـول لها كل شىء .. ومن يـدرى لعلك جـربت كل صديقـاتى .. ماعـدا خديجة طبعـا .. لم تترك لى صديقـة أثق فيها إلا

خديجة .. وتوقف محمود عن جمع حاجياته ورفع عينيه إلى سميحة وهم أن يتكلم ثم كأنه عدل وعاد يتنقل بين الدولاب والحقيبة .

وعادت سميحة تقول :

ـ كنت أصفح عنك دائما وأنسى .. كنت أقول لنفسى أنى أنا أيضا أعجب برجال كثيرين غيرك .. هذا صحيح .. ان هناك رجال يشدوننى إليهم شدا .. ولكنى لا أجرب من يعجبنى .. التجربة تكلف المرأة كثيرا ولا تكلف الرجل شيئا .. أقصد المرأة النظيفة الشريفة .. لهذا أترك لك حرية التجربة مادامت مجرد تجربة وتنتهى ودائما تبقى لى .. ولكنك تفاجئنى الآن بأنى أنا أيضا لم أكن سوى مجرد تجربة بالنسبة لك .. أردت أن تجرب كيف تكون الصحفية الناجحة وهى بين أحضانك .. هل ستبدع كما تبدع فى التحقيق الصحفى الذى تنشره ..

وصاح محمود :

ـ هذا غير صحيح ..

واستطردت سميحة وهى تضحك ضحكة عصبية ساخرة :

ـ وانتهت التجربة .. تجربتى .. شبعت من تجربتى .. لابد أن هناك تجربة أخرى فى انتظارك .. تجربة اشترطت عليك الزواج قبل أن تبدأها .. البنج قبل إجراء العملية .. البسملة قبل الذبح ..

واندفع محمود نحو سميحة وأمسك بها من كتفيها وأخذ يهزها وهو يصيح :

ـ لا تقولى هذا الكلام .. لا تظلمى نفسك وتظلمينى معك انك لم تكونى أبدا تجربة بالنسبة لى ..

وتركها من بين يديه وأدار لها ظهره وقال كأنه يحادث نفسه :

ـ لم تكونى تجربة .. التجربة كانت الزواج .. لقد عشنا الحب معا سنتين لم أفكر خلالهما فى الزواج ولم أكن أعتقد أنك تفكرين فى الزواج .. كل منا كان متزوجا مستقبله .. أنت تزوجت الصحافة وأنا

تزوجت الهندسة .. وما بينى وبينك ليس الزواج ولكنه الحب .. الآن أعرف أنه لم تولد فتاة لا تفكر فى الزواج .. الرجل قد يكتفى بالحب ولكن البنت أبدا .. لا يمكن أن تكتفى إلا بالزواج .. انه عقد ايجار بطنها حتى تصبح أما والرجل لا يؤجر بطنه ولا يهمه أن يكون أبا .. ورغم ذلك قلت فلأجرب الزواج .. وقالت سميحة فى ذهول :

ـ وفشلت التجربة ..

وقال محمود فى صوت خفيض :

ـ أعتقد ..

وصرخت سميحة :

ـ لماذا .. ماذا ينقصك .. خمس سنوات مرت على زواجنا والناس تحسدنا على ما نحن فيه .. ويحسدونك على زوجتك أكثر مما يحسدوننى على زوجى .. العالم كله ينادى بى كزوجة مثالية .. والآن بعد كل هذا تفاجئنى بالطلاق .. لماذا .. لماذا .. ماذا تريد أكثر .. ماذا ينقصك ..

وقال محمود فى هدوء :

ـ حاولى أن تفهمينى يا سميحة .. ان تفهمى ما أحس به وما أعانيه انى منذ تزوجنا وأنا أحس كأنك وضعتينى فى حلة من حلل المطبخ ووضعت الحلة فوق وابور البوتاجاز .. نار هادئة .. تطبخيننى .. تجعلين منى شيئا آخر له مذاق خاص .. يفتح نفسك وتستطعمينه .. لا .. لست أنت .. انه الزواج نفسه .. لقد بدأت أحس بالزهق والملل يزحفان على .. ثم بدأت أشعر أن هذا الزهق وهذا الملل أصبحا أقوى منى .. بدأت استسلم لهما كأن هذا هو نصيبى فى الحياة .. ورضيت بهذا الروتين الذى نعيشه .. حتى فراشنا أصبح كدرج المحفوظات .. أو أصبح كجدول الضرب معروف مقدما ما يحدث فوقه .. كل يومين ونضحك كثيرا إذا أخطأنا الحساب وأضفنا يوما على جدول الضرب ..

نضحك كأننا كنا نتبادل نكتة .. وتقولين .. «البطارخ فعلت مفعولها» وأتذكر الأسطى عباس الطباخ الذى كنت أضبطه يدخن سيجارة حشيش فى مطبخ بيت والدى ويقول لى .. «الليلة ليلة الجمعة ويلزمنى نفسين حتى أمتع زوجتى حميدة .. دى مسئولية ياسى محمود» .. ربما عندما أصل إلى سن الأسطى عباس سأضطر أنا الآخر إلى تدخين سيجارة الحشيش حتى أتحمل المسئولية .. وأحاديثنا أيضا أصبحت روتينا مملا .. انى أعلم دائما ماذا ستقولين قبل أن تتكلمى .. وعودت نفسى على أن أسمع وأسكت .. مالى أنا وحكايات الصحافة .. وقد حاولت أن أرد عليك بالكلام عن عملى .. ولكن مالك أنت وحكايات المهندسين .. فلم أعد أتكلم .. وأنت تقولين أنك تعرفين تجاربى مع صديقاتك .. هل تعرفين متى بدأت هذه التجارب .. بعد ثلاث سنوات من زواجنا .. قبلها كنت مستسلما للزهق والملل ولكنى اكتشفت أن هذا الاستسلام بدأ يؤثر على أسلوب تفكيرى فى عملى .. فى فنى .. بدأت أصبح مهندسا موظفا لا مهندسا فنانا .. خالق .. وثرت على نفسى .. قررت أن أسترجع شخصيتى القديمة .. شخصيتى قبل الزواج .. فبدأت أجرب قيمتى مع النساء .. هل لازلت فالنتينو ..

وقاطعته سميحة صارخة :

ـ انك قبل الزواج كنت مخلصا لى .. إنى متأكدة أنك كنت كلك لى .. لم تشاركنى واحدة فيك ولو لمدة ساعة .. ولهذا تزوجتك ..

وقال محمود فى هدوء :

ـ لأنك أيامها كنت تغنينى عن التجارب .. لم يكن بيننا زهق ولا ملل .. كنا أحرارا .. أنت حرة وأنا حر .. وكل لقاء لنا كان مغامرة .. مغامرة حلوة مثيرة .. لم نكن نعلم مقدما ما سيجرى بيننا .. ولم يكن كل حديثك عن عملك وكل حديثى عن عملى .. كانت أحاديثنا خمرا تأخذنا بعيدا فوق .. فوق .. حتى ترتاحى من نفسك فى نفسى

وأرتاح من نفسى فى نفسك ..

وقالت سميحة كأنها تهم بالبكاء :

ـ محمود .. قلها بصراحة .. انك لم تعد تحبنى ..

قال محمود وهو لا ينظر إليها :

ـ لا أستطيع أن أقول ذلك .. لأنى أعرف .. أنى لا أشكو منك ولكنى أشكو من نفسى .. من الحالة التى وصلت إليها ولا ذنب لك فيها ..

قالت ساخرة فى مرارة :

ـ الذنب ذنب الزواج .. هذا ما تريد أن تقوله ..

قال :

ربما ..

قالت : وهى تقترب منه وتعلق يديها على صدره :

ـ هل تريد أن تترك البيت وتبقى لى كما كنا قبل الزواج ..

قال وهو يرفع يديها عن صدره :

ـ لا ..

قالت ساخرة :

ـ لنفعل كالخواجات .. انفصال بلا طلاق ..

قال وهو يعود ويخرج من الدولاب قطعا من ثيابه ويضعها فى الحقيبة :

ـ لا .. أريد أن أسترد كل شخصيتى .. كل حريتى .. لا زواج ولا حب .. وخطت سميحة خطوات منهارة ثم ألقت نفسها فوق المقعد العريض وبقيت صامتة فترة ثم مدت يدها فوق مائدة الزينة والتقطت حقيبة جلدية صغيرة تحوى أدوات الحلاقة وألقتها من بعيد داخل حقيبة محمود قائلة :

ـ لا تنسى أن تأخذ معك علبة الحلاقة .. هل تذكر .. لقد اشتريتها لك عندما أرسلتنى الجريدة إلى لندن .. كان ذلك قبل الزواج .. هل

تذكر ..

وقال محمود وهو يزهق أنفاسه : ـ أذكر ..

وصمتت سميحة فترة ثم قالت :

ـ محمود قل لى : متى بدأت تفقد حبك لى .

قال محمود وهو مشغول باعداد حقيبته :

ـ ليس هناك متى .. ان الحب ليس كقطار السكة الحديد يروح ويجىء فى مواعيد معينة .. لا يمكن أن أقول أنى فقدت الحب يوم الثلاثاء ٢٥ أكتوبر الساعة الثامنة مساء .. ان الحب يذوب .. فى شهر أو فى سنة أو قرن أو لا يذوب أبدا .. وصدقينى أنى لا أدرى إذا كنت قد فقدت حبك أو لم أفقده وإذا كان قد ذاب منه شىء أو لم يذب .. ان كل احساسى هو احساس بنفسى .. لا شىء يمسك من احساسى .. انى لا أكرهك .. لست غاضبا منك .. لا ألومك على شىء .. انها الحالة التى نعيشها ..

قالت وهى ساهمة :

ـ الزواج ..

وسكت محمود ..

وعادت سميحة مستطردة :

ـ الغلطة غلطتى .. لو أنى كنت قد حملت وأنجبت لما فكرت أنت فى الطلاق كما تفكر الآن .. لو كان لنا طفل لضمنت أن يربطنى بك إلى الأبد .. ولكنى كنت عبيطة .. مغفلة .. قررت أن أؤجل الخلف حتى لا يشغلنى عن عملى وحتى أصل إلى مستوى النجاح الذى يكفينى .. كنت أريد ابنا يفخر بنجاح أمه ونجاح أبيه ولهذا قررت أن أؤجل وصوله إلى أن نحقق أعلى مستوى النجاح .. وكنت أريد أن ننتظر حتى نجمع دخلا كبيرا ثابتا نستطيع به أن نهب أولادنا حياة فخمة مرفهة .. وكنت أنت توافقنى على كل ذلك .. كنت أكثر اصرارا منى على عدم الخلفة .. وماذا كانت النتيجة .. حرمت نفسى من الأمومة

وضيعت نفسى كزوجة ..

ـ وقال محمود فى برود :

ـ إذا لم أعش معك من أجلك فلن يشرفك أن أعيش معك من أجل الأولاد ..

قالت سميحة صارخة :

ـ هذا هو الواقع .. كل الرجال سواء .. والنصيحة الشعبية المعروفة هى النصيحة الوحيدة التى تحمى من هذا الواقع .. امسكى زوجك من جيبه حتى يبقى مع نقوده .. ومن قوته حتى لا يبقى منه شىء لامرأة أخرى .. ثم قيديه بالأولاد .. كنت أعتقد أنى أمسك بك من عواطفك .. من حبك .. ولكن .. مع السلامة يا حب ..

والتفت إليها وقال كأنه يشفق عليها :

ـ لا تنزلى إلى مستوى هذا الكلام .. ان هذه النصيحة الشعبية أشبه بالمشروع الاقتصادى عندما كان الرجل هو كل اقتصاد البيت .. هو الذى يعول المرأة .. والمرأة مجبرة أن تعيش معه وإلا ماتت من الجوع .. وكان عليها أن تعيش فى خطة للاحتفاظ به .. أما نحن .. فأنا لست رجلا يعولك .. أنت فى غنى عنى ماليا .. وأنت لست مجرد متعة فراش كبقية النساء .. أنت انسانة كاملة تعطين أكثر وأمتع مما يعطى جسدك .. لهذا فمن حق كل منا أن يحتفظ بكيانه حتى لو انفصل به عن الآخر ..

وقالت فى غيظ وحدة :

ـ من يقرر الانفصال ..

وقال وهو ينظر إليها فى تحد :

ـ لا تبدئى فى الحديث عن الشرع والقانون وحقوق المرأة وحقوق الرجل .. كنت أستطيع أن أطلقك قبل ان تعرف وأرسل لك ورقة الطلاق على يد البوليس .. ولكننا مستوى آخر من الناس .. مستوى

آخر من العقول التى وضعت للحياة شكلا جديدا .. وجئت اليك لأقول لك بكل بساطة ان نتطلق لأن الطـلاق أمر بسيط .. أى واحد من اثنين لا يريد أن يعيش مع الآخر لا يمكن ان يعيش معـه فقط لأنه لا يريد .. هـذا هو مـا تفرضـه الشخصية الكـاملة والشـخصيـة لا تستكمل إلا بالاعتراف بحريـة الآخرين اعتزازا بحريتـه هونفسه .. فأنت تعطينى حرية الطلاق اعتـزازا بحريتك .. افترضى أنك أنت التى كنت فى حاجة الى الطلاق فماذا كنت تنتظرين منى ..

قالت بسرعة :

— أن ترفض ..

قال وهو يغلق الحقيبة فى عصبية :

— لو رفضت فكأنى أهين نفسى أمامـك .. كأنى استجدى حريتك .. حتى لو كان من حقى شرعا أن أرفض ..

وقالت سميحة وهى تقفز كأنها تهم ان تقفز لتخنقه :

— أنك تتحـدث عن الطـلاق كأن الـزواج عـلاقـة بين اثنين .. بين الزوج والـزوجة .. لا .. يجب أن تعـرف أن الزواج عـلاقة بين هـذين الاثنين وبين المجتمع .. علاقة اجتماعيـة .. الفرق بين الزواج والحب.. أن الحب علاقة بينـاثنين أما الزواج فعلاقة اجتماعيـة .. ولهذا فالذى يعطيه المجتمع للمتزوجين غير ما يعطيه للمحبين حتى لو أعلنا حبهما على الناس وظهرا به فى الشارع .

وقال محمود فى عصبية :

— المجتمعات المتقدمة المتطورة لم تعد تفرق بين الحب والزواج .. مـا دخل المجتمع اذا كان الـرجل والمرأة متزوجين أو غير متـزوجين .. العلاقة دائما علاقة خـاصة لا دخل للمجتمع فيها .. بل ان المجتمعات الأكثر تقدما لم يعد يهمهـا صفة الأبوة .. لا يهم المجتمع ان يعرف من هو الأب كل مـا يهمه ان يعرف من هـى الأم .. الأم هـى الحقيقة الثـابتة أما الأب فهو دائما حقيقة تائهـة ..الأب الحقيقى يجب ان يكون الدولة

التى تمتلك الملاجىء لتربى فيها الأطفال .

ورفع محمـود الحقيبـة فى يده وقـالت سميحـة وهى تلتصق بـه ودموع صامتة تسيل على خديها .

— ماذا ستفعل الآن ..

قال وهو يضمها بعينيه فى حنان :

— لا أدرى ..

قالت وهى تلصق صدرها بصدره :

— وماذا أفعل أنا ..

قال :

— لا أدرى ..

ورفعت ذراعيها وأحاطته بهما وقالت ودموعها تنهار :

— إنى أحبك يا محمود .. أنت تعرف أنى أحبك ..

وسكت محمود .. وهـو لا يزال رافعا حقيبتـه فى يده .. ولم يحاول أن يقبلها أو يـربت عليها .. الى أن رفعت عنه ذراعيهـا فأدار ظهره لها واتجه مع حقيبته الى البـاب .. ووقفت سميحة تنظـر اليه وهى تمسح دموعها بأصـابعها وقد عادت حمى الغيظ تملأ عينيهـا .. وقالت قبل ان يخرج من الباب .

— محمود .. من آخر امرأة جربتها ..

والتفت اليها وقال ساخرا :

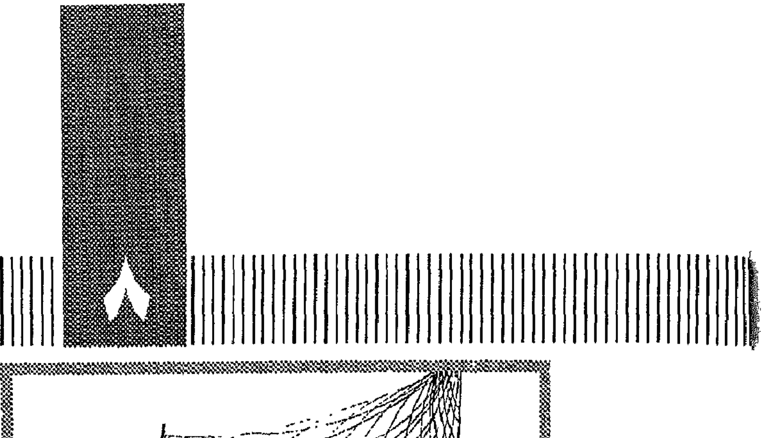
— إنى استطيع أن أقول لك من أول امرأة جربتها ..

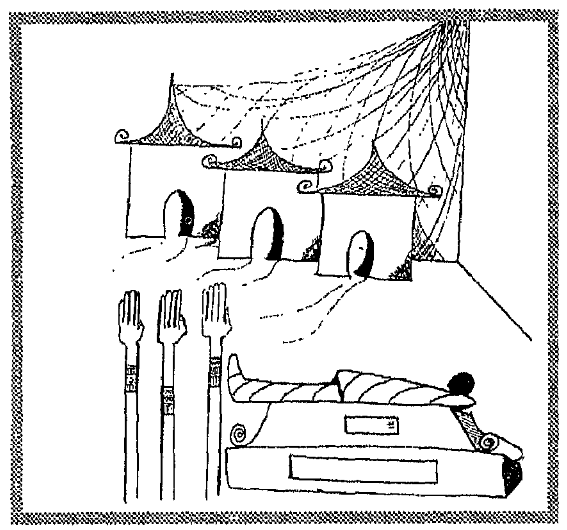
قالت مستسلمة للغيظ :

— من .. وقال وابتسامته الساخرة تتسع :

— صديقتك خديجة ..

وصرخت .. ثم ألقت نفسها على الفراش تكتم فيه صرخاتها ..





شباك

كلها ثقوب

شـــبـاك ..
كلها ثقوب

هذه ليست قصة.. انه حادث كان يمكن أن أرويه كخبر صحفى.. ولكن لغرابته فضلت ألا أرويه كنص ما سمعته بل أرويـة كما أتصوره.. وهكـذا أنـا دائما.. لا استطيع أن أهرب من خيـالى.. ويضيع الصحفى منى فى داخل الاديب .

● كـان كل بلـد أسـافـر إليـه أسمع قصـة.. وفى رحلتى الأخيرة سمعت قصة حافظ حمدى ..

ربما لم يكن اسمه ـ حافظ حمدى ولكن هـذا هو الاسم الذى عرف به فى مـدينة «بانجوك» عـاصمة تايـلاند.. وهو مصرى هاجـر وأقام هنـاك.. ولا أحـد يدرى متـى هاجـر.. إنـه مصرى مسلم تعترف بـه السفارة المصريـة وهذا يكفى.. وهـو معروف فى بـانجوك كلهـا.. انه رجل أعمال نـاجـح ووصل بـه النجـاح إلى أن أصبح متصـلا بأهم الشخصيات فى البلـد..وربما كانـت اتصالاته خـاصة بـإدارة أعماله وتسهيل عمليات التصدير والاستيراد التـى يقوم بها، وإن كانت هذه الاتصـالات تبـدو أحيانـا أبعـد من ذلك بكثير، كأن يتهم أكثـر بتتبع التيارات السياسية داخل البلد، أو ربما كان يهمه دائما أن يعلم أخبار القيادات العسكرية التابعة للجيش الأمـريكى الذى كان يحتل تايلاند أو ربما كان يحسب دائما حساب الحركة الشيـوعية التى كانت تقوى

وتشتد داخل البلد حتى أصبح وصول الحزب الشيوعى إلى الحكم واكتساحه الانتخابات مسألة مفروغا منها، أو ربما كان يشترك فى تثبيت النظام الملكى الذى يهتز ويكاد يقع بين كل يوم وآخر.. أو.. أو .

ولكن ..

المؤكد أن أقوى ما كان فى حافظ حمدى هو إسلامه ..

وبلغ أن قوة اسلامه أن أصبحت له شخصية شعبية بين المسلمين فى تايلاند.. والمسلمون هناك قوة لهم خمس ولايات من ولايات تايلاند يمثلون فيها الأغلبية المقهورة الضعيفة أمام سيطرة البوذية.. وربما شد المسلمين إلى حافظ حمدى انه مصرى يتكلم العربية.. لغة القرآن.. وهو عربى.. شعب النبى محمد ﷺ.. وكان يشاركهم الصلاة ويجلس اليهم كثيرا يفسر لهم القرآن ويشرح لهم السنة بلغتهم التى أصبح يجيدها.. وربما أقام معهم فترة فى الحى الاسلامى خارج بانجوك، وهو حى أقيم فوق مستنقع كبير والبيوت فيه عبارة عن عوامات خشبية تقف على ركائز ثابتة مثبتة فى قاع المستنقع.. وشوارعه تلال ضيقة من الطين تمر بين العوامات.. ورغم ذلك فهو حى يجمع شخصيات اسلامية محترمة وصلت إلى مراكز هامة فى الدولة.. ومراكز المسلمين الهامة لا تتعدى الدرجة الثالثة بين المراكز فالضابط المسلم مثلا لا يمكن أن يصل إلى رتبة لواء ولكن يمكن أن يصل إلى رتبة بكباشى .

المهم انه رغم شعبية حافظ حمدى بين المسلمين فإنه لم يفقد صداقته القوية واتصالاته المستمرة مع الشخصيات البوذية.. بل ربما كان البوذيون يهتمون وكأنه ليس مسلما.. بل كان يشاهد أحيانا وهو يصيب بعض أصدقائه المصريين إلى المعابد البوذية، وكان يؤدى أمامهم المناسك البوذية.. فيقف أمام تمثال بوذا ويهمس همسات لا يسمعها أحد ثم يصفق بيديه صفقات لها ترتيب خاص ثم

يـركع ويحنى رأســه إلى الأرض كما يصـلى المسلمون ثم يقـوم واقفـا يضحك ويقول لاصدقائه :

— هكذا يصـلى البوذيون ..

وكأنــه ترجمان أمين يخدم زبـائنه من السيـاح، وربما لو كـان فى مصر لوقف فى معبـد الأقصر أمام تمثـال حورس وعـرض على السياح كيف كان الفراعنة يؤدون فريضة الصلاة .

وكل مصرى يسافـر إلى بانجوك كـان أول ما يسعى إليه هـو لقاء حافظ حمدى، بل إن وزارة الخارجيـة المصرية كانت تـوصى السفراء ورجال السلك الـدبلوماسى الـذين يعيشون فى بانجـوك بأن يعتمدوا على حـافظ حمدى إذا احتـاجوا لشىء أو للتعـرف على الشخصيـات وجمع المعلـومات . إنـه يعـرف كل شىء ويستطيع كل شىء.. وكـان حافظ يـؤدى فعلا خـدمات كثيرة للسفـارة ولكثير من رجال الأعمال المصريين أو مندوبى المؤسسات المصرية الـذين يصلون إلى بانجوك.. ودائما بلا مقـابل.. حتى كـان يقال أحيانـا انه يتقـاضى عمولـة من الجانب الآخـر، أو انه يتعمـد أن يرفـع الاسعار بـالنسبة لكل عمليـة خاصــة بمصر ويحجز لنفســه فرق السعـر . ولكنه كـان مجرد كلام لا يثبت منـه شىء ولا يستطيـع أحـد من المصريين أن يستغنى بهذا الكلام ـ حتى لو صدقه ـ عن خدمات حافظ حمدى..

وكـان حافظ حمدى يقيم وحـده فى «فيـلا» ضخمة بأرقى أحيـاء بانجـوك.. كانت مسكنـه ومكتبه.. لم يكن متـزوجا ولا يعلم أحـد هل كانت لـه زوجة قبل أن يهاجر إلى تـايلانـد أو لم تكن، وهل له أولاد أم ليس له.. وعندمـا يسألونه يجيب وهو يضحك اجابـات عائمة.. ورغم ذلك فلم يكن معـروفا بعلاقـات نسائية ولم يكـن يعيش حياة التهتك الجنسى التى اشتهـرت بها بانجوك.. لا يتردد على الملاهـى الليلية أو على حمامات «الســاونا» التى تعرض النســاء وراء فاترينات زجـاجية

وتمر أمامها وتختار من تعجبك منهن لتقوم بغسلك وتدليكك وما هو أكثر.. وعندما كان يصل إلى بانجوك واحد من المصريين ويريد أن يتفرج على هذه الحياة وكلهم لا يكتفون بالفرجة ـ لم يكن حافظ يصحبه بنفسه بل كان يكلف أحد معاونيه بصحبته.. وكانوا يفسرون هذا التزمت الاخلاقى الذى يعيشه حافظ بأنه مغرق فى اسلامه إلى حد التبتل.. لايلمس امرأة إلا بالحلال وبحكم الشرع ومادام هو غنى عن المرأة.. وربما كان هذا السلوك المتزمت هو الذى رفعه إلى مصاف شيوخ الاسلام بين مسلمى تايلاند وإزداد التفاهم حوله، وان كان هناك من كان يفسر تعفف حافظ حمدى بأنه وصل إلى سن التعفف.. انه قريب جداً من الستين .

وكانت تعمل فى بيت حافظ امرأة بوذيه.. ليست صغيرة ولكنها جميلة.. هذا الجمال الهادىء يترك عينيك تطوفان بين خطوطه فى راحة وابتسامة اعجاب واستسلام لقدرة الله الذى خلق كل هذه الأنواع من الجمال وكل هذه الخطوط.. وكان اسمها «أوكشية» وكانت على الأرجح مديرة المنزل فهى تشرف على الحفلات التى يقيمها وتشترك فى تقديم الشاى دون أن يقدمها حافظ لأحد من ضيوفه ودون أن تقدم نفسها لأحد.. تدخل وتخرج وتركع أمام الضيوف وهى تقدم لهم الشاى دون أن ترفع عينيها ودون أن تنطق بكلمة .. ليس هناك من سمع صوت أوكشية وهى تتكلم.. ومن طول ما عاشت أوكشية فى بيت حافظ لم يعد أحد من أصدقائه أو ممن يعرفونه يهتم بها.. ولم تخرج أى إشاعة تربطها بحافظ فوجودها ليس غريبا وفى كل بيت من البيوت الراقية امرأة دائما بوذية تقوم بالاشراف على الخدمة.. انها تكمل البيت كقطعة من قطع الأثاث..

فجأة .

مات حافظ حمدى..

ورغم المفاجأة فقد ثبت أن الوفاة طبيعية..

وأبلغت السفارة المصرية بالوفاة بعد المغرب .

وفى صباح اليوم التالى كان الخبر قد انتشر وتجمع كثير من أصدقائه المسلمين وذهبوا إلى البيت لاعداد جنازة اسلامية تليق بقيمة حافظ حمدى فى الاسلام .

ولكن.. .

أين الجثة ؟

جثة حافظ حمدى ليست فى بيته .

اختفت .

سرقت ..

وأبلغت السفارة المصرية ، وأرسلت السفارة مندوبا عنها ليتحقق من الخبر وتأكد من أن الجثة قد اختفت فعلا .

أين أخفوها ؟

والمسلمون المتجمعون فى البيت بدأوا يتهامسون، والهمس يعلو ليصبح زمجرة كأنهم تجمعوا فوق نار تشتد لتصل بهم إلى درجة الغليان .

إلى أن تنبهوا إلى اختفاء الخادمة أوكشية .

أين أوكشية ؟

لو وجدوا أوكشية فقد وجدوا جثة حافظ حمدى..

وانطلقوا يبحثون عن أوكشية .

ووجدوها ..

انها فى المعبد البوذى راكعة بجانب جثة حافظ حمدى ومن حولها كهنة المعبد يرددون التراتيل ويمارسون التقاليد الدينية البوذية إلى أن يقرروا موعد حرق الجثة بعد يوم أو يومين أو أربعة كما يريد أهل المتوفى.. وليس حوله من أهله إلا أوكشية .

وفى بساطة تقدم ممثل السفارة وقال للراهب الأكبر أن الجثة جثة حافظ حمدى وهو مصرى مسلم وليس بوذيا فليسمح باستعادة الجثة حتى يشيعها المسلمون ..

ولكن لا .

الكهنة مصرون على أن حافظ حمدى بوذى .

ان عندنا ما يثبت انه مسلم فكيف تثبتون انه بوذى

وقال الكاهن :— ان كل من يدخل معبد بوذا فهو بوذى.. وقد دخل حافظ المعبد وهو حى ودخله وهو جثه.. أى جثة فى المعبد جثة بوذا .

وأصر الكاهن على عدم تسليم الجثة.. ومن يدرى.. ربما اشترك الكهنة أنفسهم فى خطفها فإن أوكشية وحدها لا يمكنها أن تسرق جثة وتحملها وتنقلها إلى المعبد .

والمسلمون تجمعوا حول المعبد وقد وصلوا إلى درجة الغليان .الثورة.. انهم يهددون بحرق المعبد بمن فيه إذا لم يتسلموا جثة حافظ حمدى.

وبدأ البوليس يتدخل بصد ثورة المسلمين.. وأسرع رجال السفارة المصرية واتصلوا بالمسئولين.. انه مسلم بشهادة السفارة ويجب أن تسلم جثته للمسلمين.. والحكومة لايهمها أن يكون مسلما أو بوذيا، وكل ما يهمها هو أن تتجنب ثورة الاسلام على البوذية.. ثم ان السفارة المصرية يجب أن تحترم ويرجح رأيها .

وأمرت الحكومة كهنة المعبد بالافراج عن الجثة .

وأفرج عنها الكهنة قبل لحظات من القيام بمراسم حرقها ولكنهم استمروا فى أداء مراسم الموت اصراراً منهم على انه بوذى.

ورفع المسلمون جثة حافظ حمدى كأنهم يرفعون راية انتصار الاسلام، وساروا بها فى أكبر جنازة اسلامية شهدتها بانجوك .

●●●

وكانوا يتحدثون فى السفارة عن اعجوبة حافظ حمدى.. لقد اغرق فى التظاهر بالاسلام حتى يكسب المسلمين.. انهم قوة يستطيع بها أن يثبت شخصيته فى سوق تايلاند.. السوق السياسية وسوق الأعمال وفى الوقت نفسه اقترب من البوذيين حتى اقنعهم بأنه يؤمن بما يؤمنون وانه أصبح بوذيا.. ومن يدرى ربما كان قد استأذنهم حتى يبقى محتفظا باسمه وبمظاهر ديانته كمسلم حتى لا يضار فى مصالحه.

انها لعبة المتاجرة بالاديان أو النفاق الدينى.. مع المسلمين مسلم ومع البوذيين بوذى ومع الكفرة كافر ..

ولكن من يدرى.. لعلها قصة حب .. عاشت معه أوكشيه كل هذه السنوات فى قصة حب .. ولعل مظاهر تعففه وتحفظه وابتعاده عن المرأة الحرام لم يكن إيمانا منه بتعاليم الاسلام ولكن اكتفاء منه بحب أوكشيه وقد أحبها حتى عاش معها فى ديانتها البوذية يفهمها ويمارسها حتى مع احتفاظه باسلامه .. وبعد أن مات لم تحتمل أوكشيه أن يأخذوا حبيبها بعيدا عنها .. تريد أن تعيش معه ميتا كما عاشت معه حيا .. فاختطفت جثته ولعلها كذبت على الكهنة البوذيين واقنعتهم أنه بوذى فجاءوا يعاونونها على نقله إلى المعبد دون أن يعرفوا أنهم يرتكبون جريمة سرقة .. سرقة جثة.. ومن يدرى.. لعل أوكشية كانت تنوى الانتحار بعد أن تحرق جثة حبيبها لتحرق نفسها بعده وتلحق به.. من يدرى.. بل لعلها انتحرت فعلا فلم يعد أحد يعلم عنها شيئا .

والكلام لا يسكت عن أعجوبة حافظ حمدى وبعضهم يستغلها ليثير الفتنة فى البلد كله .. إن البوذيين سرقوا جثة مسلم حتى يثور المسلمون على البوذيين.

إلى أن حدثت المفاجأة الثانية .

لقد تلقت السفارة المصرية برقيـة مطولة من محام يدعى انه وكيل زوجة حافظ حمدى ويطلب التحفظ على تركته وعدم المساس بها .

والبرقية صادرة من اسرائيل .

والمحامى يهودى..

والزوجة يهودية..

وحافظ حمدى نفسه يهودى ..

لايمكن .

ولكن السفـارة لا تستطيع أن تتجـاهل هـذه البرقيـة فقـد وصلت برقيـة أخرى بنفس المعنى إلى الجهات المختصـة فى حكومة تايـلاند.. وتـايلانـد معترفـة بـاسرائيل ولا تستطيع أن تتجاهلهـا أو تتجـاهل حقوق أفرادهـا كدولة معادية.. ولم تعـد السفارة المصرية تسطيع أن تستمر فى اجراءات تصفيـة التركة بعد أن كانت قد بـدأت فيها اعتقادا بأن حافظ حمدى ليس له وريث .

وأرسلت السفارة القصة بكل تفاصيلها إلى مصر..

وتركت إدارة المخابرات المصرية تبحث عن حقيقة حافظ حمدى.

ووصلت المخابرات إلى الحقيقة.

انه فعلا يهودى.

وكان يعيش فى مصر بنفس الاسم الذى يغطى بـه يهوديته.. حافظ حمدى.. ثم هـاجـر من مصر هـو وعـائلتـه عـام ١٩٥٥ قبل أن يقع الاعتداء الثلاثى عام ١٩٥٦.. لعله كان يعرف أن شيئا سيحدث.. وقد هاجـر إلى فرنسا ومنهـا إلى اسرائيل وترك عـائلته ـ زوجتـه وابنتيه ـ هناك وهاجر هو إلى تايلاند.. وهو دائما محتفظ بجواز سفره المصرى وكـان يجدده فى السفـارة دون أن يشك أحد فيـه.. ولا شك أنـه كـان يسافر إلى اسرائيل لزيارة عائلته حاملا جواز السفر الاسرائيلى ..

وسكتت السفارة المصرية فى تايلاند .

لم تعد تستطيع شيئا .

وجاءت زوجة حافظ حمدى من اسرائيل ومعها محاميها، ولم يحاول المحامى الاتصال بالسفارة المصرية فقد وجدها لاتتدخل.

وصفيت التركة بعد أن تأكدت الحكومة أن حافظ حمدى يهودى اسرائيلى وأن هذه زوجته .

ولم تكن تركة كبيرة فقد كان حافظ حمدى يحول أمواله دائما إلى الخارج.. وإلى اسرائيل .

والكلام لا يكف فى كل تايلاند .

والمسلمون لا يصدقون الحكاية.. فهو مسلم .

والبوذيون لا يصدقون الحكاية.. فهو بوذى..

حكاية اليهودى الذى يلعب بشبكة الاديان ويصطاد بها المسلمين والبوذيين ولو احتاج لا صطاد بها المسيحيين .

إنها شبكة عريضة تسع العالم .. وكلها ثقوب.

تمت

رقم الايداع ١١٦٣٦ / ٩٦
الترقيم الدولى
I. S. B. N. 977 - 08 - 565 - 3


أخبار اليوم
قطاع الثقافة